اديار دمشق وبرّها : ٣ [1] بقلم حبيب زيات

١٢
دير الرصافة

هو دير حنينا

قال البكري هو بدمشق [2] ويظهر انه نقل ذلك عن ابي الفرج الاصبهاني وورد نظيره في كتاب الديرة للسيماطي كما جاء في معجم البلدان قال ياقوت ما ارى الا انه غلط منه . وبين الرصافة هذه ودمشق ثمانية ايام وقد اجتاز ابو نواس بهذا الدير وقال فيه :

ليس كالدير بالرصافة دير ... فيه ما تشتهي النفوس وتهوى
بتُّ ليلة فقضّيت اوطا ... رًا ويومًا ملأت قُطريه لهوا [3] .

ولا يدرى ما كان اسم هذا الدير قبل قدوم العرب وبناء الرصافة بالقرب منه ولذلك تنوسي لقبه النصراني ككثير من القاب الديارات امثاله التي انتسبت في الاسلام الى مواقعها او الى جيرانها من ارباب الضياع والبقاع وتعرّت من اسمائها الرهبانية القديمة بحيث يتعذر اليوم على المؤرخ معرفة من كان يحتلها من الروم او السريان ولكن يؤخذ من قول البكري ان دير الرصافة من بناء الروم انه كان للروم الملكية .

وقد نشأ عن ضياع هذه الاسماء الرومية او السريانية وهم وقع فيه غير واحد من مؤلفي كتب الديارات لاعتبارهم الدير الواحد — اذا اتفق احياناً معرفة اسمه القديم واشتهر مع ذلك باسمه الحديث — ديرين مستقلين لا صلة لاحدهما بالآخر ومن هذا القبيل عدّهم دير الرصافة خلاف دير حنينا وقد اسعدنا الحظ بالوقوف على شهادة أُنف اصبناها في تاريخ ابن عساكر المخطوط يستدل

١) انظر المشرق ١٩٤٨ ص ٢٢٨ ، و ١٩٤٩ ص ٨٠

٢) معجم ما استعجم طبعة مصطفى السقا ١٩٤٧ ج ٣ ٥٨٠ — ٥٨٢

٣) معجم البلدان طبعة اروبة ٣ : ٦٦١

من مقابلة ابياتها وخبرها بالابيات والخبر الواردة في اوصاف دير الرصافة ان هذا الدير هو بعينه دير حنينا الذي تقدم تعريفه وهذا نص ما نقله ابن عساكر في ترجمة الفرخ رجل من بني امية قال :

« له قصة مع المتوكل قرأت بخط أبي الحسين الرازي . . حدّث محمد بن سعيد الربعي قال : لما اراد جعفر المتوكل الخروج من الشام الى العراق احبّ ان يعمل طريقه على البرية لينظر الى آثار بني أمية ومصانعهم وكان في طريقه دير يُعرف بدير حنينا فلما ازمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أمية فقال والله لانتصنّ عليه نزهته بأبيات اصيرها ثم نقدمه الى الدير فيجعل لصاحب الدير جُعلًا على ان يدعه يكتب في صدر الهيكل ابياتًا فأذن له فكتب :

ايا منزلًا بالدير اصبح خاويًا	تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تغطك بيض براعم	ولم تتخفر في فنائك حور
وابناء املاك عمائم سادة	صغيرهم عند الانام كبير
اذا نزعوا تيجانهم نصراغم	وان لبسوا تيجانهم فبدور
على انهم يوم اللقاء قساور	ولكنهم عند السؤال جور
ولم يصبح الصهريج والناس حوله	عليه فساطيط لهم وخدور
وحولك رايات لهم ومعاكر	وخيل لها بعد الصهيل خرير
ليالي هشام بالرصافة قاطن	وفيك ابنه يا دير وهو امير
اذ الملك غضّ والخلافة لدنة	وانت خصيب والزمان طرير
وروضك مرتاض وربعك رائع	ووجه بني مروان فيك نضير
بسلمة الميمون وهو الذي له	تكاد قلوب المشركين تطير
بلى فسُقيت الغيث صوب سحائب	عليك جما سحّ الرواح بكور
تذكرت قومي بينهم فبكيتهم	بشجو واني بالبكاء لجدير
وعزّيت نفسي وهي نفس اذا جرى	لها ذكر قومي أنّة وزفير
رويدك ان اليوم يعقبه غد	وان صروف الداثرات تدور
لعل زمانًا جار يومًا عليهم	لهم بالذي تهوى النفوس يعود
فيفرح مرتاب ويأمن خائف	ويطلق من حبل الوثاق اسير

فلما قرأها المتوكل قال والله ما كتب هذا الا رجل من بني أمية يريد ان ينقص عليّ ما انا فيه فمن اتاني به فله دينه فطُلب فأُتي به واذا هو رجل من بني أمية من اهل دمشق يعرف بالفرخ فامر بقتله وقال : بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد . قال ابو الحسين راوي هذه الحكاية ان المتوكل لما قرأها بكى بكاء شديدًا وامر بهدم الموضع »[11] .

(١) تاريخ ابن عساكر في الظاهرية دمشق ١٩ : ١٤٥

وذكر ابو الفرج الاصبهاني في كتابه الديارات الذي نقل عنه الشهاب العمري في كتابه مسالك الابصار ان اول من قصّ هذه الحكاية هو ابن حمدون الذي صحب المتوكل الى دمشق ونقلنا من لفظه زيارته لديارات باب الفراديس وكنائسها في كلامنا على دير صليبا وهو شاهد عياني يوثق به كل الثقة ويظهر ان المتوكل لم يأمر بهدم الدير او الهيكل الذي زعم ابو الحسين الرازي انه كتبت في صدره الابيات ويبعد جدًا ان يكون الديراني اجاز لاحد كتابتها في صدر الهيكل ولعل الاصح قول ياقوت ان الابيات كانت في رقعة ملصقة في حائط من حيطان الدير حيث قرأها المتوكل ولا يتضح لنا السبب الذي دعا المتوكل الى البكاء عند قراءتها كما قيل وبما يثبت انه لم يكن هناك هدم في الموضع ان ياقوت رأى هذا الدير وشهد انه من عجائب الدنيا حسنًا وعمارة وقد اتفق ياقوت والعمري والبكري على ان كاتب الابيات ليس هو الفرخ الدمشقي كما روى الرازي ولكنه رجل من وُلد روح بن زنباع الجذامي من اخوال هشام بن عبدالملك ولم يقل احد منهم ان الخليفة امر بقتله.

١٣

دير الرهبان الروم

بدمشق

كان بدمشق ديارات للرهبان اشار اليها سعيد بن بطريق في تاريخه (٢ : ٨٣ طبعة بيروت) ولكنه اهمل تعدادها وتسميتها فلا سبيل لنا اليوم الى معرفة شيء منها ويؤخذ من شهادة المعلم علي بن محمد بن التقي المهندس الذي ذكره شهاب الدين العمري في كتابه مسالك الابصار انه كان في الرواق الذي كان يحيط بكنيسة يوحنا من الجهات الاربع قلالي وصوامع[1] كانت داخلة في الاديار التي حول الكنيسة.

وفي سنة ١٣٣٥ مرّ احد زوار فلسطين بدمشق وشاهد في اواسط المدينة

١) مسالك الابصار للعمري ١ : ١٨٩

ديرًا يسكنه بعض رهبان الروم[1] (caloyers) ولا يبعد انه كان بجوار كنيسة مريم ولعله كان ايضاً في جملة الديارات التي انتهبت سنة ٩٢٤ ومنها دير للنساء بجانب الكنيسة المذكورة كما سيجيء من كلام سعيد بن بطريق .

١٤

دير زكّى

بدمشق

زكى من الاسماء المعروفة بين النصارى واشتهر به دير في الرها وقيل في الرقة وقد انفرد ياقوت بذكر دير زكى في الشام وكان في زمانه « قرية بغوطة دمشق » قال : وقد مرّ بهذا الدير عبدالله بن طاهر ومعه اخ له فشربا فيه وخرجا الى مصر فمات اخوه بها وعاد عبدالله بن طاهر فنزل في ذلك الموضع فتشوق اخاه فقال :

ايا سروتي بستان زكى سلمتما ... وغال ابن امي نائب الحدثان
ويا سروتي بستان زكى سلمتما ... ومن لكما ان تسلما بامان[2]

وقد فاتنا ما قاله مؤلفو كتب الديارات في هذا الدير لضياعها كلها وسقوط اخبار اديار الشام في نسخة كتاب الشابشتي المحفوظ في برلين وفي خزانتنا صورة عنه ومع اننا طالعنا تاريخ ابن عساكر في مجلداته الضخمة السقيمة في ظاهرية دمشق فلم نوفق الى العثور مرة على اسم دير زكى بين اسماء القرى التي نزلها او نشأ فيها من مر بدمشق من رجال ابن عساكر.

١٥

دير سركيس وباخوس

في معلولا

لا يزال هذا الدير قائماً في ذروة جبل يشرف على معلولا يسمى مكانه

(١ Jacques de Vérone : *Le Pèlerinage du moine Augustin Jacques de Vérone* (Revue de l'Orient Latin LII, 1895 Paris n° 2 p. 138

(٢ معجم البلدان ٢ : ٦٦٥

بالمعلولية « بلوطا عليا » اي البلد الاعلى والمرتقى اليه صعب شاقّ ولذلك لم ترد اقل اشارة اليه في الآثار الاسلامية لبعده عن طريق الزوار والمتنزهين ولا يُدرى في الحقيقة متى كان بناؤه ومن اقام فيه من الرهبان وفي خزانة بريتيش موزيوم كتاب صلوات في السريانية (اكتوئخوس) تم نسخه في ٢٩ شباط سنة ١٥٢٤ للاسكندر اي ١٢١٣ للميلاد كان موقوفاً على الدير[1] ويظهر ان مرضى النصارى ما فتئوا يترددون اليه طلباً للشفاء لاشتهاره بعجائب القديس سرجيوس حتى كما نبه على ذلك الشماس بولس الحلبي في كتابه « رحلة البطريرك مكاريوس الى البلاد المسيحية» حين زار اديار دمشق سنة ١٦٤٢ في صحبة والده ملاتيوس الزعيم مطران حلب[2] .

والدير اليوم في ملك الرهبان المخلصيين من الروم الكاثوليك واول رئيس عليه عُرف منهم الخوري امبروسيوس زعرور سنة ١٧٥٣ ومن الغريب انه مع كل ما امتاز به من حسن الموقع وجمال المُطَلّ لا يزال مُطَّرحاً مهملاً خالياً من كل جمال ورياش في ابنيته ومعبده لقلة اكتراث الرهبان له مع كونه الدير الاوحد الذي لهم في انحاء الشام وفي بقائه على هذه الحال من الاهمال عار على الرهبانية لقدرتها على ترميمه واصلاحه وبناء بعض غرف فيه تليق بها وبزواره ولهم في دير مارت تقلا للروم الارثذكس عبرة كافية.

١٦

دير سمعان

في جبل قاسيون

اشتهر هذا الدير بموت عمر بن عبد العزيز فيه ولكن اشتد الخلاف في موقعه وتعددت الاقوال والظنون في تعيين المكان الذي اعتلّ الخليفة الاموي فيه فروى الطبري[3] وتابعه ابن الاثير[4] انه قضى نحبه في خناصرة واضاف صاحب

١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٥٨
٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٢٤ – ١٢٨
٣) تاريخ الرسل والملوك المطبعة الحسينية القاهرة ٨ : ١٢٧
٤) الكامل لابن الاثير القاهرة سنة ١٣٠١ ج ٥ : ٢٧

كتاب البدء والتاريخ انه لما مرض فيها « دخل عليه بعض بني امية فرآه على فراش ليف تحته وسادة من أدم مسجّى كاسف اللون »[1] وهذا الوصف هو احد الاخبار الموضوعة لإطراء زهد الخليفة وفقره وتقواه .

وفي طبقات ابن سعد ان وفاته كانت بخناصرة ودفنه في دير سمعان[2] ولم يقل اين كان الدير وورد مثل ذلك في سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٨٦) وفي كتاب العيون والحدائق انه توفي بخناصرة ودفن بدير سمعان من ارض المعرة (٣ : ٦٣) وعرّف ابن حوقل خناصرة بانها « حصن يحاذي قنسرين الى ناحية البادية وعلى شفيرها وسيفها كان يسكنه عمر بن عبد العزيز »[3] وممن ذهب ايضاً الى ان وفاة عمر كانت بخناصرة ابو الفداء وابن الوردي[4] وآخرون من المؤرخين .

وحكى في ضد ذلك ابن واضح اليعقوبي ان عمر بن عبد العزيز « خرج الى دمشق فنزل دار ابيه التي كانت الى جانب المسجد[5] واقام عشرين يوماً وكثر عليه الناس فارتحل الى مدينة حمص راجعاً يريد ان ينزلها فلما صار الى اوائل حمص اعتلّ فمال الى موضع يعرف بدير سمعان فنزله ويقال بل ارتحل اليه قاصداً يريد نزوله بسبب قطعة ارض كان ورثها عن امه فيه »[6] واقتصر المسعودي على هذا الرأي ونص على ان دير سمعان كان من اعمال حمص مما يلي قنسرين وان قبر عمر كان في ايامه (سنة ٣٣٢=٩٤٤) الى هذه الغاية معظماً يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية ولم يُعرَض لتبشه في ما سلف من الزمان كما عُرض لقبور غيره من بني امية »[7] وروى ابن عساكر « ان عمر بن عبد العزيز مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب (سنة ١٠١ = ٧٢٠) بدير سمعان من ارض

١) كتاب البدء والتاريخ طبعة هوار ٦ : ٤٧

٢) طبعة اروبة ٥ : ٢٠١

٣) كتاب صورة الارض الطبعة الثانية القسم الاول ١٧٩

٤) المختصر في اخبار البشر ١ : ٢١٢ وتتمة المختصر ١ : ١٨١

٥) دار عبد العزيز بن مروان بدمشق هي « هذه الخانقاه الملاصقة للجامع المعروفة بالشميساطية » (تهذيب الاسماء واللغات للنووي طبعة اروبة ٣٩٣)

٦) تاريخ اليعقوبي طبعة ليدن ٢ : ٢٦٨ – ٢٧٠

٧) مروج الذهب طبعة باريس ٥ : ٤١٦ – ٤١٧ والتنبيه والاشراف طبعة ليدن ٣١٦

حمص[1] وعنه اخذ شمس الدين الذهبي[2] والنووي[3] وغيرهما من النقلة والرواة وتردد ابن الجوزي بين خناصرة كما تقدم وحمص بدير سمعان واشاروا الى ان قبره هناك مشهور يُزار ويتبرك به.

ورجح دفنه في حمص من المتأخرين الشيخ عبد الغني النابلسي وحكى في رحلته الحقيقة والمجاز « انه زار القبر وهو في مسافة ميل من بلدة حمص قال : واشرفنا عليه فوجدناه متهدم الجدران من الجهات الاربع في وطاءة من الارض ولم نجد هناك قبراً ولا شيئاً يدل على انه كان هناك قبر معلوم بل قيل لنا هذا مكان دير سمعان وآثاره تدل عليه ولوامع الانوار يتشرق لديه...وهو مشهور عند اهل حمص انه مدفون في ذلك الدير»[4]

وكانت صحة القبر في حمص مشكوكاً فيها في ايام صلاح الدين الايوبي ولما مرّ بحلب سنة ٥٨٤=١١٨٨ وتوجه منها قاصداً معرة النعمان احب فيها زيارة الشيخ الزاهد ابي زكريا المغربي وعنده مشهد يقال انه لعمر بن عبد العزيز فتبرك بزيارة الحي والميت ثم قفل راجعاً وبعد ان اجتاز حماة وقاصها « اصبح زاحلاً ولم يقم بحمص»[5] واعرض عن القبر المنسوب فيها للخليفة الاموي وهو ما يدل على ان هذه النسبة كانت قد ضعفت في زمانه ولذلك لم يحفل بها.

وهذا المشهد الذي آثر صلاح الدين التبرك به كان في ضواحي معرة النعمان في دير يقال له النقيرة زعموا ان عمر بن عبد العزيز كان مدفوناً فيه لاعتقادهم ان دير سمعان هو اسم مدفن الخليفة حيثما كان من الامكنة وقد دافع غير واحد عن صحة مدفن عمر في النقيرة وفي طليعتهم شهاب الدين العمري الدمشقي وتصحف اسم النقيرة في كتابه مسالك الابصار ورُوي فيه « البقرة »[6] وتقدمه في هذا الوهم القاضي جمال الدين بن واصل ووافقه عليه ابن الوردي واليافعي

---

١) تاريخه المخطوط في دار الكتب الظاهرية (رقم ٣٣ تاريخ) ٧ : ١٢٠ – ١٢١

٢) دول الاسلام طبعة حيدر اباد ١ : ٥٢

٣) تهذيب الاسماء واللغات طبعة اروبة ٣٩٣

٤) دار الكتب الظاهرية (٥٥ ادب) ص ٥

٥) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة ٢ : ١٢٤

٦) مسالك الابصار الجزء الاول المطبوع ٣٥٢

وابن الشحنة . قال صاحب مراصد الاطلاع : « قبر عمر بن عبد العزيز في قرية تعرف بالنقيرة وكان مرضه ديرًا فخرب وسألت بعض اهل المعرة عنه فقالوا الذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز يعرف بدير النقيرة ودير سمعان دير آخر قريب منا ولعل الدير الذي بالنقيرة قد كان يسمى دير سمعان »[1]

ومن الرحالين الذين زاروا قبر النقيرة الشيخ علي بن ابي بكر الهروي مؤلف كتاب الزيارات قال : دير النقيرة من بلد المعرة به قبر عمر بن عبد العزيز وقبر الشيخ ابي زكريا المغربي من كبار الصالحين وقيل قبره بدير سمعان والمشهور هذا »[2] ثم مرّ من بعده ابن بطوطة بمعرة النعمان وقال : بخارجها على فرسخ منها قبر امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية له ولا خديم له وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولعن متبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي »[3]

وقد تعددت في انحاء الشام الاديار المسّماة باسم سمعان واشتهر معظمها في جوار حلب وانطاكية ودمشق وحمص والمعرة ولذلك حار المؤرخون في تعيين مدفن عمر في احدها واجمعوا كلهم انه لم يكن في انطاكية في الجبل المعروف قديماً بالجبل العجيب وانفرد كاتب ترجمة عمر في معجم الموسوعات الاسلامية بالظن خطأً ان الخليفة دفن في نواحي حلب[4] اي بين جبل عُلَيم والجبل الاعلى في الدير المعروف اليوم بسمعان العمودي الذي باطلاله ودِمَنه العجيبة.

وقد اطلنا البحث في ما تناولته اليد من الآثار النصرانية الباقية فلم نقف على اقل اشارة الى دير لسمعان بجوار حمص ولا ندري متى حلّ الخراب به وتحولت بقعته الى شبه قريه اشتهرت بالنسبة اليه كاشتهار غيرها من بقاع الاديار ومن اجلها صرّح النووي ان دير سمعان كان « قرية قريبة من حمص » وهي التي وجدها النابلسي خاوية خالية ليس فيها اثر للدير او للقبر.

١) مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع طبعة اروبة ٢ : ٦٣٢

٢) كتاب الزيارات في مجموع (رقم ١٠ تصوف) في دار الكتب الظاهرية بدمشق

٣) رحلته طبعة باريس ١ : ١٦٥

٤) Encyclopédie de l'Islam p. 1046

وفي ضد ذلك اسعدنا الحظ بالعثور على ذكر لدير سمعان في النقيرة وجدناه في كتاب للشماس بولس الحلبي ابن البطريرك مكاريوس الزعيم بخط قلمه في تاريخ انطاكية المحفوظ عندنا وقد وصف فيه سمعان مرة « بالقديس الناسك وانه كان اولاً في الجبل الاوسط ثم انتقل الى معرة النعمان ويدعى سمعان النقيري صاحب الجبل الاوسط » ثم نعته مرة اخرى « بالبار سمعان المسمى بالعتيق » ولما أرخ تذكاره في اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني قال « انه منذ صباه آثر العيشة الفقرية واحبها وسكن في مغارة صغيرة . . . وذهب الى الجبل ودخل في باطن المغارة التي اختفى فيها موسى قديماً . ثم عاد راجعاً من الجبل وعمر ديرين » وهذا القول يؤيد شهادة صاحب مراصد الاطلاع انه كان في النقيرة ديران باسم سمعان اشتهر الواحد وعفى الدهر على الآخر وجهل مكانه .

ومما تقدم يتبين جلياً تعدد الاديار السمعانية في الديار السورية وفيه حجة كافية لعذر كل خطإ في تعيين الدير الحقيقي الذي في ارضه كان قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز ومن اجله اضطربت اقوال المؤرخين وتناقضت اراؤهم في النص على موضع واحد وقد كان يكفي احدهم ان يقع على اسم دير لسمعان ليعتقد انه كان مدفن عمر حيثما وجد من البلاد دون اقل بحث عن موقعه او انتقاد وقد اجمع الرواة على ان هذا الاسم هو اسم اللحد الذي اختاره عمر بنفسه ليكون مثوى له ومرقداً وابتاع هو مكانه من اصحاب الدير وتقدهم ثمنه على اختلافهم في تقدير هذا الثمن اختلافاً تعمدوا فيه النقص والمبالغة الى حد السخف ليوهموا زهد الخليفة الخارق الحد وفقره المدقع حتى زعم صاحب كتاب العيون والحدائق انه اشترى قبره بدينارين وعجز عن ادائها فدفع اليهم ديناراً وقيعاً[1] وكأن ابن سعد استحيا ان ينقل في طبقاته مثل هذا الهزل والتهويل فروى ان الثمن كان عشرة دنانير[2] وابلغه ابن عساكر الى ثلاثين ديناراً قال ثم دعا بالدنانير فوضعها بيد النصراني[3]

١) كتاب العيون والحدائق . ليدن ٣ : ٦٢

٢) طبقات ابن سعد طبعة اوربة ٢٩٩

٣) تاريخ ابن عساكر المخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق المجلد السابع الورقة ١١٨

ومن راجع نصوص الروايات القديمة التي نقلها ابو الفرج الاصبهاني والخالديان في كتاب الديارات واخذها عنهما لا شك البكري في معجم ما استعجم وياقوت في معجم البلدان يعلم حق العلم ان دير سمعان مدفن عمر كان دون اقل ريب « بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور »[1] وبساتين لبني امية[2] بالقرب من الغوطة على قطعة من الجبل يطل عليها[3] وهو وصف ينطبق على جبل قاسيون ولكن يتعذر الاهتداء منه الى مكان الدير بالضبط لقلة احتفال الرواة والمؤرخين بالاجمال بالتخطيط والتحديد وقد بقيت لنا لحسن الحظ شهادة بلدية تعين على الدلالة على موقعه بوجه التقريب نقلها لنا ابن طولون احد علماء دمشق في المئة العاشرة في كتابه « القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية » في اثناء كلامه على المدرستين المعظمية والعزيزية وكان بناء الاولى سنة ٦٢١/١٢٢٤ والثانية سنة ٦٣٥/١٢٣٧ قال: شمالي هاتين المدرستين حوش عظيم بحيطان عالية يقال انه دير سمعان كان . وله باب يفتح الى الشرق وداخله عدة قبور معظمة »[4]

وفي موضع التربة المعظمية في قاسيون كان في قول غير واحد من المؤرخين دير مران المشهور كما سيجيء في الكلام عليه فكان الديران اذن متجاورين وربما وقع الاشتباه والخلط بينهما كما يدل على ذلك قول الزبير ان معاوية وجه يزيدًا ابنه لغزو الروم فاقام يزيد بدير سمعان[5] بدلًا من دير مران في اشهر الروايات .

ويجب ان يكون الخراب قد اسرع الى دير سمعان بدمشق قبل منتصف القرن الثاني للهجرة لان صالح بن علي العباسي « حين قدم الشام سأل عن قبر عمر بن عبد العزيز فلم يجد احدًا يخبره حتى دُلّ على راهب فسأل عنه فقال :

---

١) معجم البلدان طبعة اروبة ٢ : ٦٧١ – ٦٧٢

٢) معجم ما استعجم للبكري طبعة القاهرة ١٩٤٧ ج ٢ : ٥٨٥ – ٥٨٦

٣) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٥١ – ٢٥٣

٤) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق الشيخ محمد احمد دهمان ١٣٣

٥) معجم ما استعجم للبكري ٢ : ٥٨٥ – ٥٨٦ وتاريخ ابن عساكر في الظاهرية ١٨ : ١٩٨ ظهر و١٩ : ٢٠٩

« أقبر الصديق تريدون ؟ هو في تلك المزرعة »[1] كذا دون اقل ذكر لمكانها ويستدل من قول المسعودي بوجود دير سمعان في اعمال حمص ان خبر موت عمر في غير دمشق كان قديماً سبق القرن الثالث وان مكانه في قاسيون كان قد تنوسي وزال ذكره من كل علم واثر حتى زعم البصروي في كتابه فضائل الشام انه « دفن بالباب الصغير من مقابر دمشق وهناك ضريح مشهور انه قبره »[2] ولا حاجة الى التنبيه على غرابة هذا القول ولم نجد من تابعه عليه بين كل من أرّخ دمشق .

وقد انكر شهاب الدين العمري وجود دير سمعان بقاسيون وزعم انه « ليس يسمع بدمشق لهذا الدير نابسة ولا يعرف لمكانه في الغوطة خضرا. ولا يابسة » وعنده ان الدير هو في قرية تعرف بالبقرة (النقيرة) من قبلي معرة النعمان وبه قبر عمر بن عبد العزيز لا ينكر »[3] وفاته ان ياقوت نفى قبله نفياً باتاً وجود القبر في النقيره وجزم ببقائه بين قومه في حاضرة الامويين . ومن العجيب ان يجهل العمري ما علمه بلديه ابن طولون بعده بقرنين ويقدم على تخطئة ابي الفرج الإصبهاني والخالدي لقولهما بقدم دير سمعان بدمشق .

وربما استعظم من ليست له مشاركة في تاريخ الاديار دفن خليفة اموي في دير نصراني والحقيقة ان اسم دير سمعان كان يطلق ليس على مقر الرهبان فقط بل على كل ما احاط به وجاوره من الدور والقصور والجنان والمزارع كما كانت تعرف بقعة دير مران بنفس الاسم دون تمييز ومن احدى قطع الارض التي كانت تحدق بدير سمعان وكانت جارية في ملك الرهبان اشترى عمر محل قبره كما سبق ويظهر انه كان له دار في بقعة دير سمعان مجاورة لهذه الارض فاختار ان يدفن فيها ليكون غير بعيد عن مقره وقد شهد خصي اسود كان له بوجود هذه الدار وقال : « دخلت على عمر بن عبد العزيز في يوم شات في داره بدير

---

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٩

٢) الحقيقة والمجاز لعبد الغني النابلسي دار الكتب الظاهرية بدمشق (٥٥ ادب) الورقة ٣٥

٣) مسالك الابصار ٢٥١ - ٢٥٣

سمعان وألفيته قاعدًا في زاوية الدار في نشس »[1] ولا تخفى قيمة هذه الشهادة التي حفظها لنا انس بن مالك .

ومن عرف دير سمعان من الشعراء جرير دخله في يوم عيد فرأى النساء والصبيان يقبلون الصُلُب ويسجدون لها فقال :

رأيت بدير سمعان صليبا تقبّله الشوادن والظباء
تعظّمه الفسوس وتحتويه فترشفه ويغنمها البكاء
فقلت مع هل غير عود تمسّكه العوجاج والتواء[2]

ولا يخفى ظرف هذه الابيات ولعه دخل الدير في احدى زياراته باب الفراديس حين كان يؤرّقه فيه صوت سجاج وضرب النواقيس . ومن بعده مرّ بدير سمعان ابو فراس بن ابي الفرج الجاعي واحزنه ما رآه عليه من الخراب فقال يخاطبه في ظن ياقوت والارجح عندنا انه كان يعني دير سمعان بالقرب من حلب :

يا دير سمعان قل لي اين سمعان واين بانوك خبّرني متى بانوا
واين سكانك اليوم الألى سكنوا قد اصبحوا وهم في الترب سكان
اصبحت قفرًا خرابًا مثل ما خربوا بالموت ثم انقضى عُمر وعُمران
وقفت اسأله جهلًا ليخبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان
اجابني باسان الحال انهم كانوا ويكفيك قولي انهم كانوا[3]

ولم نستطع ان نعرف الى اي سمعان كان ينتسب دير قاسيون ألى سمعان الحلبي المشهور بالعمودي ام الى سمعان الانطاكي ولا نذكر انه مرّ بنا قط في تاريخ الاديار وقبور الخلفاء ما سبق شيء من الخبط والتخليط في تعريف مدفن عمر بن عبد العزيز وموقع دير سمعان وزاد في الطين بلة ما نشأ على تتابع الازمان من الاسماء واخبار القصاص في كل ما تناول القبر والدير من الصلات والجوار كالخبر الذي نقله صاحب كتاب مراصد الاطلاع ان « دير مران على الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة وبه قبر عمر بن عبد العزيز مشهور يُزار

---

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابي محمد عبد الله بن عبد الحكم ١٦٣
٢) مسالك الابصار ٣٥١ - ٣٥٣
٣) معجم البلدان ٣ : ٦٧٢

به »[1] وفي هذه النغمة الجديدة انبا. ظاهر الى ان دير سمعان الدمشقي كان في جوار دير مران في قاسيون اي في جبل الصالحية اليوم وان سائر الاديار المنسوبة لسمعان في حمص وخناصرة والنقيرة ليس توهم وجود القبر فيها الا صدى لوجوده في دير سمعان بدمشق.

١٧

دير صليبا

في ظاهر دمشق

ويعرف ايضاً بدير السائمة ودير خالد لنزوله فيه عند حصاره دمشق وقد اختُلف في موقعه في الحقيقة وفي رواية لابن عساكر « ان دير خالد كان خارج الباب الشرقي مما يلي بيت الآبار فخرب »[2] وليس اليوم في جوار قرية بيت الآبار اقل طلل او رسم باق يدل على موقع الدير وتبعد القرية عن دمشق زهاء نصف ساعة وفي قول ابن الكلبي ان الدير كان على ميل من الباب الشرقي[3]

ويترجح من اوصاف كتب الديارات ان دير صليبا كان مقابل باب الفراديس المعروف اليوم بباب العمارة مطلًا على الغوطة وكان بناؤه حسناً عجيباً في بقعة « نزهة كثيرة البساتين والاشجار والمياه دلّ عليها اسمها «الفراديس» اي الجنان وكانت ارضه مفروشة بالبلاط الملون والى جانبه ديرٌ ثانٍ للنساء الرواهب »[4] والى هذين الديرين اشار جرير بقوله :

اذا تذكرت بالديرين ارقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

واستشهد الخالدي على ان دير صليبا كان يلي باب الفراديس بقول جرير في هذا الشعر :

قفلت الركب اذ جدَّ النجاء بهم يا بعد يعربن من باب الفراديس (٥

١) مراصد الاطلاع ١ : ٤٣٩ — ٤٤٠

٢) تاريخ ابن عساكر في الخزانة الظاهرية بدمشق ٩ : ٢٢١ ظ

٣) معجم البلدان لياقوت ٣ : ٦٥٧

٤) الاعلاق الخطيرة لابن شداد خزانة بريتش موزيوم لندرة Add. 23335 f° 108

٥) مسالك الابصار لشهاب الدين العمري ٣٤٩

وفي رواية البلاذري ان اهل هذا الدير اتوا خالد بن الوليد بسلمين وعليها رقي بعض جنده الى اعلى سور الباب الشرقي ونزلوا اليه وليس عليه الا رجل او رجلان وتعاونوا عليه وفتحوه[1] قال هشام « سمعت الوليد بن مسلم يذكر ان خالدًا بن الوليد شرط لاهل الدير الذي يعرف بدير خالد شرطًا في خراجهم بالتخفيف عنهم حين اعطوه سلمًا صعد عليه فانفذه لهم ابو عبيدة »[2]

وهذه الرواية ترجح كون الدير في مقابل باب الفراديس لقرب هذا الباب من الباب الشرقي خلافًا للدير المجاور قرية بيت الآبار وبينه وبين الباب الشرقي ميل فيما ذكروا .

ولا يُعلم الى اي زمن استمر الدير في الاسلام بعد زيارة المتوكل له سنة ٢٤٣/٨٥٧ ولا متى استولت الايدي عليه في اثناء الفتن والحروب التي اجتاحت دمشق وذهبت باديارها ومصانعها وآثارها وعرّتها من معظم محاسنها ومفاخرها قال العبري «واليوم لا عين له ولا اثر وانما صار دورًا وابنية ومساجد ومدافن وهي بناحية محلة حمام النحاس»[3]

وليس في الآثار والكتابات النصرانية الباقية اقل اشارة الى هذا الدير فلا يعرف متى بني قبل الاسلام وما كان اسمه في الحقيقة في دولة الروم البيزنطيين ونظرًا لحسن موقعه وجمال مُطلّه على جنان الغوطة كثر غشيانه المتطربين له واقبال ارباب الشراب والقصف عليه شأن امثاله من الديارات في الاسلام « وحُكي ان الوليد بن يزيد (الخليفة الاموي) كان كثير المقام في هذا الدير يخرج اليه ومعه حُرَمه استحسانًا له وانه كان يجلس في ايام مقامه فيه في صحنه كل يوم ساعة من النهار ثم يأكل ويشرب في مواضع منه طيبة حسنة »[4] واشتهر الدير به حتى قيل له « دير الوليد » وجهل ياقوت هذه النسبة فقال لا ادري اين هو الا ان مفسري قول جرير قالوا اياه اراد بقوله « لما

١) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اوربة ١٢١
٢) فتوح البلدان ١٢٩
٣) مسالك الابصار ٣٥٦
٤) مسالك الابصار ٣٥٦

تذكرت بالديرين ارقني »[1] وجهل ابن قتيبة وجود ديرين باسم صليبا للرهبان والرواهب فقال هو المقصود ببيت جرير وانما ورد بالتثنية كعادة الشعراء في تثنية الاعلام للضرورة[2]

ولم ينتهِ الينا من خمريات الاديار والحانات الا مـا يأتي في اوصاف هذا الدير قال البابشتي : أنشدت فيه :

يا دير باب الفراديس المهيّج لي ... بلابلا بقلالبه واشجـاره
ومقلساً لي من مالي ومن نشبي ... يا أباكره من خمر خمّاره
لو عشت تسعين عاماً فيك مصطبحاً ... لا قضى منك خلي بعض اوطاره [3]

ومن الشعراء الذين زاروا هذا الدير واطنبوا في مدحه والثناء على موقعه وجماله ابو الفتح محمد بن علي المعروف بابي اللقاء حدث عنه وقال :

« اقمت بدمشق مدة فاحببت ان امضي الى هذا الدير يعني دير صليبا الذي يعرف بدير خالد فتواعدنا انا واخوان لي على المضي اليه والمقام فيه يوماً وليلة فلما رايناه وحسنه وكثرة رياضه وحداثقه وبناءه اطربنا واعجبنا فاقمنا به شهراً نصطبح وننتبق وقلت فيه :

جنّة لُقّيت بدير صليبا ... مبدها حسنه جمـالا وطيبا
جئته للمقام يوماً فظلنا ... فيه شهراً وكان امراً عجيبا
شجر محـدق به ومياه ... جاريات والروض يبدو ضروبا
من بديع الالوان يضحي به الناـ ... ظر ممـا يرى لديه طروبا
كم رأينا بدرا به فوق غصن ... هائس قد علا بشكل كثيب
وشربنا بـه الحياة مداما ... تطلع الشمس في الكؤوس غروبا
فكأن الظلام فيهـا خمار ... من سناها يسرّ منا القلوبا
لست انسى ما مرّ فيه ولا اجـ ... ـمل مدحي الا لدير صليبا [4]

وقد نقل ابن عساكر هذا الخبر وهذه الابيات من كتب الديرة لابي الحسن علي بن محمد بن المظفر السمساطي وقال ان ابي اللقا الشاعر مرّ بدمشق وذكر بعض ديرتها في شعره.

---

١) معجم البلدان ٢ : ٧٠٥
٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة ليدن ٣٠٠
٣) الاعلاق الخطيرة لابن شداد بريتش موزيوم
٤) تاريخ ابن عساكر الخزانة الظاهرية بدمشق ١٩ : ١٢٨؛ ومعجم البلدان ٢ : ٦٧٤

وكانت شهرة هذا الدير وروعة موقعه وطيب ما حُفَّ به من الرياض والاشجار والمياه قد ترامت الى بغداد وبلغت اسماع الخليفة العباسي المتوكل على الله ولما قدم دمشق سنة ٢٤٥/٨٥٧ في من صحبه من الوزراء والقواد والحجّاب والكتّاب لم يدع زيارة هذا الدير في جملة الاديار والكنائس الدمشقية « في الموضع المعروف بالفراديس » وقد وُفقنا للعثور على وصف هذه الزيارة في مجموع مخطوط في خزانة بريتيش موزيوم في لندرة وهو أنف لم يستخرج بعد من سَفطه وفيه من الطرافة والظرف والدلالة على احوال النصرانية في القرن الثالث للهجرة « بين كنائس عظيمة وآثار قديمة » ما حدانا الى نسخه هنا بغاية الحرص والاعجاب لجلالة روايته وعظم فائدته حدث به ابو عبد الله بن حمدون نديم المتوكل وشاهده العياني قال :

« كنت مع المتوكل لما شخص الى الشام فمنّ له ان يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس ثم قال انفي كنت اسمع بطيب هذه المواضع فقلت الرأي ما رآه امير المؤمنين فترلنا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة ترتاح النفوس اليها ويشتهي من يترلها ان لا يرتحل عنها فلما استراح من تعب الركوب استدعاني وقال هل لك في الركوب قلت كما يأمر امير المؤمنين فاخذ بيدي ولم يزل يستقري تلك الكنائس والديارات ويشاهد ما فيها من عجائب الصور ويرى من (f° 126b) احداث الرهبان وبنات القسيسين وجوهًا كأنها اقمار على غصون تتثنّى في تلك الاروقة والصحون وكلما مرّ بنا شيء منهم يقول لي : ويحك ترى ما نحن فيه ؟ ما شاهدت مثل هذا قط ثم خلونا براهب من قوّام الكنيسة فلم يزل المتوكل يسأله عن كل جارية وغلام يمرّ به واسمه ونسبه اذ لمح كتابة على حائط الكنيسة فقرأها واذا هي « حضر الغريب المشتّت الحزين وهو يقول : شتّت شملي بعد الألفة وشقي جسمي بعد الترفّه ومشيت من العراق الى هذا الرواق وارتحلت عنه في ذي الحجة سنة احدى ومائتين وانا اقول :

آل امري الى اخسّ الامور ... وتبدلتُ كربة بسروري
واعترتني من الزمان خطوب ... تتبارى في هتكة الستور
نفس صبرًا لحادثات الليالي ... كل شيء يذلّ للمقدور

فقال لي : ويحك ترى ما اظرف حال هذا المسكين وما احرق هذا الانين ؟

ومرّت به جارية ما رات عيني لها شبيهاً وعليها جونا (كذا) وبيدها

مبخرة تبخر بها[1] فقال لها المتوكل : تعالي يا جارية فاقبلت بحسن ادب وكمال فسأل المتوكل الراهب عنها فقال : ابنتي قال : وما اسمها قال : شمانين فقال لها المتوكل : يا شمانين اسقيني ماء فقالت : يا سيدي ماؤنا ههنا ماء الراهبات القذرات ولست استنظف مائهم ولا آنيتهم ولو كانت حياتي ترويك (١٢٧٠ م) لجُدتُ لك بها ثم اسرعت فجاءت بكوز من فضة فيه ماء فاومأ الي ان اشربهُ فشربت واشتد عجبه بها وشهوته لها فقال لها : يا شمانين ان هويتك تساعديني؟ فتنفَّست ثم قالت : اما الآن فانا عبدتك فاما اذا عرفت صحة حبك وتمكنت من قلبك فما اخوفني من حدوث الطغيان عند تمكن الشيطان اوَ ما سمعت قول الشاعر :

كنت لي في اوائل الامر عبدا ثم لما ملكت صرت عدوّا
ابن ذاك السرور عند التلاقي صار مني تجنباً ونبوّا

فطرب المتوكل وكاد يشق قميصه ثم قال لها : هبي لي نفسك اليوم حتى اشرب انا وانتِ فانا ضيفك فقالت : على الرحب والسعة ثم أصعدت بنا على علّية مشرفة على تلك الكنائس فرأينا منظراً هالنا حسناً ثم مضت فجاءت بأشياء من المأكول مستظرفات وكان المتوكل عاف ذلك لعزّة الخلافة فاستأذنها في احضار طعام فاتونا بخروف محشوّ وسنبوذج واشياء قريبة المأخذ من طعام مثله فاستظرفت ما جيء به واستهولت الآلة وفطنت لامير المؤمنين فقامت قائمة بين يديه تخدمه وتكفر له فمنعها ثم جاء ايوها بشراب من بيت القربان

---

١) تقدم القول انه كان في دير صليبا دير آخر للنساء الرواهب فلا عجب اذا كانت ابنة قس الكنيسة تخدم او تبخر في بعض الصلوات والاحتفالات وكان للنساء في بعض الكنائس الشرقية نصيب في خدمة البيعة كالتلاوة والتبخير وما اشبه من نوافل الخدم في ديارات النساء ومعلوم ان القسوس غير الرهبان كانوا يتزوجون مرة واحدة ولا يزالون كذلك في بعض القرى في لبنان والشام وفي كنائس المدن في البطاريركيات غير الكاثوليكية . وقد دعا ابن حمدون قس الدير راهباً لظنه ان كل سكان الديرين رهبان وراهبات وان الراهبات « بنات القسيسين » ولم تكن شمانين ابنة القس القائم بكنيسة الدير راهبة بوجه من الوجوه ولذلك وصفت ماء الدير بانه « ماء الراهبات القذرات » فإسلامها رهبةً من المتوكل لا يعد عاراً على راهبات دير صليبا .

ذكر المتوكل انه لم يرَ مثله قط فشرب وشربتْ معه فاستغنيتُ من حمى كانت لحقتني تلك الليلة فاعفاني وسرَّ بها وبظرفها سروراً عظيماً تاماً

فلما اخذ الشراب منها قالت له : يا سيدي اغنيك من غنائنا على ضعف الصنعة ؟ فكاد يهيم وقال : ان فعلتِ كل والله ظرفك (f° 127b) فقامت فجاءت بشيء يستونه القيقارة (القيثارة ؟) وصرخت واندفعت تغني :

يا خاطباً مني الموردة رحبا سماً لامرك لا عدمتك خاطبا
انا عبدة لهواك فاشرب واسقني واعدل بكأسك عن حليلك ان ابى
قد والذي رفع السماك ملكتني وتركت قلبي في هواك معذَّبا

فنمر المتوكل وقال : ويلكِ اميتٌ انت ؟ فانتبهت وعلمت اني اخطأت في مساعدته فاخذت رطلاً ولم ازل اشربه حتى لحقته ومضى لنا يوم كان في الايام فرداً ثم ارغبها المتوكل فاسلمت وتزوجها ولم تزل عنده حتى قتل رحمه الله

« ورأيت في بعض النسخ ان شحروراً وقرياً كانا يصيحان على اعالي اشجار الدير فاصغى اليهما المتوكل فلما تحققت اصغاءه اليهما انشدته هذه الابيات الاربعة :

وكأنما الشحرور راهب بيعة ألهاه طيب الوقت عن ترميره (١
جُعلت له تلك الغصون مواسماً يثني في اغيله وزبوره
وكأنما القمري يندب شجوه بانينه وحنينه وزفيره
صبَّ شجته بلابل لما دنت منه ديار انيسه وسميره

فاعجبه ذلك منها وزاد بها سروراً ولها محبة ثم انه ارغبها الى ان اسلمت وتزوجها رحمه الله »(٢

ومما يجب ان ينتبه عليه ان ابن حمدون على مكانه من منادمة المتوكل كان غنياً عن كل مجاملة او اطراء في ما حكاه من هذه الزيارة ويزيد في قدر شهادته انها الاثر الفرد الذي بقي لنا من الاشارة الى الاديار والكنائس في القرن التاسع بدمشق والدلالة على بعض ما اتصفت به النصرانيات في حاضرة الامويين من جمال الخَلق والخُلق وكمال الادب والعلم ودقة الفطنة والفهم حتى بين « بنات القسيسين » ولا دليل يدعو الى الريب بان الابيات التي غنَّت بها

١) الترمير هنا يراد به تلاوة مزامير داود

٢) الدر الملتقط من كل بحر وسقط لجامع شتاته محمد بن علي بن حمدون الكاتب الدمشقي بريتيش موزيوم لندرة Add. 14908

شمانين — وهذا الاسم لا يزال معروفاً في لبنان — هي من نظمها وارتجالها وبنت ساعتها. وعفو قريحتها وهو ما يزيد في الاعجاب بذكائها وظرفها وبلوغها الغاية من حسن التربية والعشرة والمشاركة في ضروب من العلم كالغناء. والنظم وهي صفات تحلى بها كثير من الفتيات الجواري والاماء. والقيان من كل الملل والنحل في الاسلام كما يعلم ذلك كل واقف على تاريخ الحضارة العربية في الخلافة العباسية[1]

١٨

دير السيدة

بصيدنايا

هو فيما يظهر اقدم الاديار في دمشق وضواحيها وكان ذكره في ايام الصليبيين قد شاع وملأ الافواه والاسماع فكان محطاً للقوافل والركبان وقبلة للحجاج والعباد ومقصداً للزمنى والمرضى ومزاراً للكبراء. الافرنج لمكان ايقونة العذراء والاعتقاد الشامل انها من رسم القديس لوقا الانجيلي مع ما كان يُعزى لها من الاشفية والمعجزات بفضل الزيت السائل منها . وفي سنة ١٩٣٢ نشرنا تاريخاً خاصاً حافلاً لصيدنايا والدير توسعنا فيه جداً وضمناه كل ما وقفنا عليه من اوصافها واخبارهما في طوافنا على خزائن المخطوطات والمطبوعات في الشرق والغرب فليراجع

واشتهرت صيدنايا قديماً بجودة خمرها كاشتهار الدير بايقونته واول من تغنى بطيب مدامتها ابو نواس امير لواء السكايزي فقال :

قم فاسقني واشرب فقد وفّى الدجى واتت ذكاء بنورها المتوقد
واسأ لنا بنت الكروم وهاتها صرفاً متى تُنضَب بماء تزبد
بما اصطفوه بحمص او ما عتقو هُ بصيدنايا او خبوه بصرخد
خذها على دين المسيح اذ نهى عن شربها دين النبي محمد[2]

١) الخزانة الشرقية ٣ : ١٢ — ١٦

٢) الدر الملتقط من كل بحر وسفط رقم ٣١ من الخزانة الخالدية القدس ص ١٣ — ١٤ ولم نجد هذه الابيات في ديوانه

وزاد في اطرائها من بعده ابن عُنَين فقال يخاطب اخاه من الهند :

يا سيدي واخي لقد اذكرتني عهد الصبى وموطني ونصحت لي
اذكرتني وادي دمشق وظله الضافي على صافي البرود السلسل
ووصفت لي زمن الربيع وقد بدا هرم الزمان الى شباب مقبل
وتجاوب الاطيار فيه فطرب يُلهي الشجيّ ونائح يشجي الخلي
ومدامة من صيدنايا نشرها من عنبر وقميصها من صندل
مسكيّة النفحات يشرف اصلها من بابل ويحلّ من قُطْرُبُّل (١

وله ايضاً فيها :

اجتلي بنت كرمة خرنتها الروم دهرًا ما بين طين وقار
صيدنانية الملاعب لكنْ اباها اذا اعترى كان قاري (٢

ووصف الشهاب العمري خمر دمشق بقوله : «هي الموصوفة في الآفاق المعروفة في مغارسها بكرم الاعراق ... وصيدنايا معدن ذهبها وافق كوكبها[٣] وزعم بعض السفّار من الفرنج ان شاربها يأمن من الخمار

وبقيت ايقونة الدير ملجأً للاعلاء والاصحاء حتى اوائل القرن الخامس عشر دون ان يتوجه لاحد شك في وجودها حتى شهد بعض الفرنج الزوار الثقات بسرقتها وشاهد صندوقها فارغاً[٤] ولكن الراهبات حرصن غاية الحرص على كتمان فقدانها وتحيّلن في ذلك بكل الحيل لئلا تنقطع النذور عن الدير فكان المصلّون والراكعون يسجدون حتى اليوم امام صندوق خالٍ من الصورة القديمة التي كانت دهرًا طويلًا ظاهرة للعيان ثم :

تخفيّت على «عبّادها» فكأنما يجدون ريًّا من اناء فارغ

وكان في الدير خزانة قديمة حافلة بالمخطوطات ولا سيما السريانية فخشي بطريرك الروم الارثوذكس ان يحتج السريان بكثرتها لاثبات حق لهم على الدير فجمعها الوكلاء واضرموا فيها النار وخبزوا عليها خبزتين بقلب راضٍ

(١) ديوانه ٨٦
(٢) ديوانه ٧٥
(٣) مسالك الابصار ٦٠٣٦ باريس ١١٢
(٤) *Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant.* Paris 1704 pp. 310-313

ونفس مطمئنة وباؤوا بالاثم والعار وسوء السمعة ولا يخفى على احد ما فقده العلم والتاريخ من الفوائد والقيود الدينية والبلدية التي كان يمكن تعليقها على تلك الذخائر المخضوب عليها

وفي ثورة سنة ١٨٦٠ اوشك الدير ان ينهب ويحرق فتداركت رئيسة الراهبات الامر ورشت عصابة اللصوص فارتدّوا على اعقابهم راجعين بعد ان كانوا على مقربة من الدير واشاعت الرئيسة ان هذا الانقلاب كان باعجوبة من الايقونة.[1]

١٩

دير قانون

بظاهر دمشق

ذكره ياقوت في جملة الاديار النصرانية واقتصر على القول انه من نواحي دمشق[2] وموقعه اليوم تجاه قرية كفر الزيت وفيه محطة السكة الحديدية على بعد زهاء ٢٥ كيلومترًا من دمشق واسم قانون او قونن (Conon) من اسماء قديسي النصارى ويعرف به موضعان من اعمال صور يقال لكل منهما دير قانون قال ياقوت : « القانون بنونين منزل بين دمشق وبعلبك »[3] ولم ينتبه الى انه هو دير قانون الذي اشار اليه سابقاً.

والدير قديم لا يدرى متى كان بناؤه وقد اضمحلت آثاره ورسومه وكان يعد من متنزهات دمشق ذكره ابن منير الطرابلسي في قصيدته :

حيّ الديار على علياء جيرون ... مرى الهوى ومغاني المُرَّد العين

وبعد ان عدد فيها معظم منازه دمشق وقراها المشهورة بالطيب والقصف جعل دير قانون بعد آبل السوق فقال :

فالطرون فداريا فجارخا ... فآبل فمغاني دير قانون[4]

---

١) *Souvenir de Syrie* 1903 p. 176-177

٢) معجم البلدان ٣ : ٦٨٤

٣) معجم البلدان ٤ : ٢١

٤) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس

واشار ايضاً الى الدير محاسن الشرّا الحلبي في قصيدة له طويلة تكاد تبلغ مئة بيت سرد فيها كل مغاني دمشق في زمانه ومواطن اللهو والفرح فقال:

حيّيا ساكني بلوذان عني ورجالا بدير قانونَ زُمرا (١

ويظهر ان الدير كان عامرًا في زمان ابن الحجاج الشاعر المشهور لانه لمح في بيت له الى خمر الرهبان للقربان فقال في الحث على شرب الدهباء:

اشربوها كما اقتناها آل دير القانون للقربان (٢

٢٠

دير القسّيس

في جوار بُقّين ومضايا

اشار اليه محاسن الشرّا الحلبي في قصيدته التي عدّد فيها اشهر قرى دمشق ومتنزهاتها فقال:

والشُّما لي ثرى مضايا وبُقّينا ودير القسيس شبرًا فشبرا (٣

ورواه شهاب الدين فينان الشاغوري بتخفيف السين اي قسيس لضرورة الوزن فقال بعد ان ذكر قرية عين حور في بيت سابق:

ودير قسيس جنّة اي جنّة مشارها مشفوعة بالآكل (٣

ولولا هذين الشاعرين لجهلنا اسمه وموقعه.

دير القس

بدمشق

كذا ورد في تاج العروس (٤ : ٢١٨) دون اقل تعيين او وصف ولم نقف على ذكر آخر له في مطبوع او مخطوط مما تناولته اليد في الخزائن ولا يبعد ان يكون هو دير القسيس المشار اليه آنفاً.

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس

٢) ارشاد الاريب ٤ : ١١ ٣) عيون التواريخ لابن شاكر ١٥٨٧ باريس

٢١

دير الماطرون

روى ياقوت عن ابي محمد حمزة بن القاسم انه قرأ على حائط من بستان الماطرون هذه الابيات :

أرقتُ بدير الماطرون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارس
واعرضت الشعرى اليمور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس
ولاح سُهيل عن يميني كأنه شهاب نحاه وُجهة الريح قابس (١

قال ياقوت : وهذه الابيات قديمة لارطاة بن سُهيّة[٢] ولا شك ان هذا الدير سبق الاسلام وكان من جملة الاديار العديدة التي كانت منتشرة للبعاقبة في كل بر دمشق ولو كان انتهى الينا اسمه النصراني ربما كنا نهتدي الى ذكر له بين الديارات التي وقع عنها رؤساؤها في بعض المجامع القديمة وأشير اليها في المخطوطات السريانية كالتي نبّه عليها مؤلف فهرست المصاحف الارامية في خزانة بريتيش موزيوم.

وفي تاريخ ابن عساكر ان هذه الابيات لجراس بن قعطل الكلبي[٣] وكانت النصرانية فاشية في بني كلب ولا شك انه كان منهم قوم في الماطرون

وقد اقتصر ياقوت وصاحب القاموس على القول ان الماطرون موضع او قرية قرب دمشق وزعم ابو الحسن القفطي انه بستان بظاهر دمشق يسمى اليوم الميطور[٤] ولا ريب انه اشتبه عليه الاسمان فجعلها واحدًا وهما متباينان والميطور بين قاسيون وبرزة وقد جمعها عرقلة الدمشقي حبًا بالجناس والطباق فقال في بيت له ناطق بالتمييز بينهما :

وكم ليلة بالماطرون قطعتها ويوم الى الميطور وهو مطير (٥

(١) في الاصل المطبوع « نحاة وجهه » وفي تهذيب ابن عساكر « نجاه وجهة » والمعنى لا يستقيم في كلتا الروايتين والصواب : نحاه أي اماله وصرفه
(٢) معجم البلدان طبعة اوروبة ٢ : ٦٦٤
(٣) تاريخ ابن عساكر في الظاهرية ٤ : ٢٤ ك
(٤) خزانة الادب البغدادي طبعة بولاق ٣ : ٢٧٩
(٥) معجم البلدان طبعة اوروبة ٤ : ٧١٦

وعدّه ابن منير الطرابلسي مع داريا في جملة متنزهات دمشق في قصيدته التي مطلعها : « حيّ الديار على عليـا. جيرون » فقال بعد ان سرد اشهر ما عُرف منها في زمانه :

فالماطرون فداريا فجارضا فآبل فمغاني دير قانون(١

وحار كل من تكلم على الماطرون من المستشرقين في تعيين موقعه فاجترأ دوسو بالقول ان ضالة المـاطرون يجب ان تُنشد حوالي دمشق(٢ وتردد الاب لامنس بين ان يكون في الغوطة او في وادي بردى(٣

وذكر ابن عُنين الماطرون دون اقل اشارة الى موضعها فقـال من قصيدة يمدح بها الملك المعظم :

فيا من لراجٍ ان تبيت مُبَدَّة بيدا دون الماطرون ركابه(٤

وسبق ابن الرقيات فعدّ الماطرون بعد صُنين فقال :

اقفرت منهم الفراديس فالنو طة ذات القرى وذات الظلال
فصُبير فالماطرون فحورا ن فقار بـابس الاطلال(٥

ولما شبب ابو دهبل الجمحي بعاتكة بنت معاوية قال في قصيدة له :

طال ليلي وبتُّ كالمجنون واعترتني الهموم بالماطرون(٦

وفيه إلماع الى ان معاوية كان يصطاف احيـاناً بالماطرون وما يؤيد ذلك ايضاً ابيات لابنه يزيد في فتاة هويها كانت تقضي الربيع في جلق والخريف في الماطرون قال فيها :

ولها بالماطرون اذا أكل النمل الذي جمعا
نزل حتى اذا ارتبعت ذكرت من جلق بيعا
في جنان ثمّ مونقة حولها الزيتون قد ينعا(٧

---

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ ومعجم البلدان ١ : ٥٧
٢) R. Dussaud : *Topographie historique* p. 306
٣) P. Lammens : *Etudes sur le règne de Mo'awia* p. 378
٤) ديوانه ١٩
٥) معجم البلدان ٣ : ٤٨١
٦) الاغاني وخزانة الادب للبغدادي ٣ : ٢٧٦
٧) انساب الاشراف للبلاذري ٢ : ٣ ومعجم البلدان ٤ : ٢٤٥

ويروى في البيت الثاني « خرفة » بدلاً من « منزل » وفي عجزه ايماء الى بيع جلق وهي غير كنائس دمشق ولعل ذكر البيع هو الذي اوهم ان يزيداً تنزل في نصرانية ترهبت في دير خراب عند الماطرون[1] والارجح عندنا ان لفظة « بيعاً » هي تحريف « بقعاً » وهي بقع الجنان التي ينبع فيها الزيتون المذكورة في البيت التالي .

وفي عقد الجمان لليافعي[2] وكتاب البدء والتاريخ للبلخي[3] ان يزيد بن معاوية ولد في الماطرون وفي هذا المولد كان سرّ هواه في بلدتها وما جاورها من القرى وسبب اختياره لها لاصطيافه ولهوه وصيده وفيها ايضاً فاجأه نعي الخليفة والده ولنا على ذلك شاهد يرشدنا الى تعرف موقع الماطرون وهو قول سبط بن الجوزي : « لما مات معاوية كان يزيد بحوّارين وَذَنبة والماطرون مشغولاً بلهوه وصيده »[4] وفي حوّارين ايضاً ادركه الاجل والى قبره فيها اشار الاخطل بقوله في رثائه :

مقيم بحوارين ليس ببارح سفته النوادي من ثويّ ومن قبر [5]

ومما يؤيد قرب الماطرون من ذَنَبة قول سبط ابن الجوزي ايضاً في كلامه على نهر يزيد : « كان يمتدّ في القديم الى المساطرون وذنبة والقناطر في لحف الجبل باقية الى الآن (منتصف القرن السابع للهجرة) وذنبة هي « دانافا » التي وَهِم كتاب الروم وظنوا انها هي صيدنايا وموقعها في الارنجُخ في موضع قرية مهين[6] فلم يبقَ من ثم ريب ان الماطرون كانت قبلها للقادم من دمشق قريباً من حوارين .

وليس لدينا اليوم من اخبار دير الماطرون ما يكشف لنا طرفاً من الحجاب المسدول على غابر ايامه فلا ندري كيف تطرق اليه الخراب واندرست آثاره

---

١) الاغاني وخزانة الادب للبغدادي ٣ : ٢٧٩

٢) دار الكتب المصرية ١١ : ٤٦

٣) طبعة فرنسة ٦ : ١٦

٤) مرآة الزمان في خزانة أكسفرد Marsh. 289

٥) انساب الاشراف ٣ : ٤

٦) R. Dussaud : *Topographie* p. 271

وغاية ما نعرفه من اوصافه كثرة الاعناب في بقعته وجواره من القرى والدساكر وقد اشتهرت خمرته بالجودة والاطراب ولذلك قال محاسن الشرّا الحلبي :

يا نديمي اسقني بالماطرون خمرة تجلب افراح الحزين (١

وكان القيان والمغنون يرددون احياناً في مجالسهم قول يزيد : « ولها بالماطرون اذا » ولذلك اقترح ابو نواس هذا الصوت فقال :

غنّني يا ابن أذين ولها بالماطرون (٢

ولعل اضمحلال الماطرون كان في اثنـاء القرن السابع للهجرة بعد وفاة محاسن الشرّا الحلبي

٢٢

دير متى

بظاهر دمشق

انفرد عون الدين بن المجمي الكاتب المتوفى سنة ١٢٥٨/٦٥٦ بالاشارة الى هذا الدير وحرّض على زيارته بعد دير مرّان وهو ما يدل على قربه من دمشق وهذه هي الابيات التي ورد فيها ذكر الديرين من جملة قصيدة له يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين داود الايوبي قال :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً بضامر لم يكن في سيره وانى
ان جُزتَ بالشام ثَمَّ تلك البروق ولا تعدل بلفت المنى عن دير مران . . .
وحُجَّ على دير متى ثم حيِّ به الر بّان بطرس فالربّان رباني
فبثّ منه اشارات فَمُتُّ بها وصنتُ منشورها في طي كتمان (٣

ويظهر ان عون الدين ولد وتوفي بدمشق وكان متأهلاً للوزارة فهو اعرف بديار مدينته وما في برّها وضواحيها ومما يجدر التآل عنه هل كان الربان بطرس الذي ذكره رئيسَ الدير في ذلك الوقت وهل في قوله : « الربان رباني » تلميح الى انه درس عليه بعض العلوم ام انه اراد به مجرد المجاملة او حب

١) عيون التواريخ للكتبي ١٥٨٧ باريس

٢) اخبار ابي نواس لابن منظور ٢١٣ وقوله : « ولها بالماطرون » اشارة الى بيت معاوية في الفتاة النصرانية السابق الذكر

٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١ : ٢٢٥-٢٢٦

الجناس؟ ولولا هذه الابيات لجهلنا كل الجهل وجود هـذا الدير وكم للشعراء عندنا من ايادٍ وحسنات في التنبيه على ما اغفلَ الكتاب والمؤرخون البلديون بالاشارة اليه او التنويه به من مـآثر البلاد ومعالمها ومغانيها ومتنزهاتها كما يتضح ذلك مما رويناه من اقوالهم وشهاداتهم في كتابنا الديارات النصرانية في الاسلام.

ويصعب تعيين موقع دير متى في ظاهر دمشق لغياب كل اشارة اليه في ما عدا الابيات الآنفة الذكر ولعله هو المعروف اليوم في قرية كفر العواميد شرقي سوق وادي بردى وآثاره هنالك بادية باقية[1]

٢٣
دير مُرّان
في قاسيون

ضُبط اسمه بالإجماع بضم الميم وتشديد الراء «تثنية المُرّ»[2] قال البكري: «وهناك عقبة المُرّان سميت بذلك لأنها نبت شجرًا طوالًا مستوية تشبه المُرّان. ومَرّان بفتح الميم موضع آخر ولكنه ليس الشام»[3] وفي كتب اللغة ان المُرّان شجر الرماح والواحدة مرّانة فيكون من ثم اسم الدير أطلق عليه بعد الفتح لجواره للعقبة المذكورة كما أطلق اسم دير البخت على دير ميخائيل بظاهر دمشق لان عبد الملك بن مروان كان ارتبط بقربه مجناً له[4] ويترتب على هذا القول ان اسم الدير العربي حلّ في الخلافة الاموية محل اسمه القديم في الدولة البيزنطية فما كان يا ترى اسمه الرومي قبل ان ينادي فيه يزيد بن معاوية لاول مرة مشيرًا الى ما لاقاه جيش غزاة العرب امـام خلقيدونية (القدقدونة) من الامراض والجوع ويقول:

(١) منتخبات التواريخ لمحمد اديب آل تقي الدين الحصني ٣ : ١٠٤٩
(٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٩
(٣) معجم ما استعجم طبعة وستنفلد ٣٦٢
(٤) الديارات للشابشتي ٩٣

ما ان أُبالي بما لاقت جموعهم بالنَّد قدونه من حمص ومن روم
اذا انكأت على الالفاظ مرتفقاً بدير مرّان فدمي ام كلثوم (١)

وقد يتطرق الى الوهم ان اسم مران اصله في السريانية « ماران » اي سيدنا عُرف به في ايام الروم لغلبة اللغة الارامية على سكان برّ دمشق وجبالها ومنهم كان على هذا الرأي بُناة الدير ولكن هذا الزعم ليس الا مجرد افتراض وحدس لا يؤيده شيء من الآثار السالفة ولم تتقدم بمثله عادة ولا تقليد لاننا لا نجد بين كل اسماء الديارات التي تُعدّ بالمئين ديرًا واحدًا دُعي « ماران » كذا مجرّدًا مقتطعاً دون تعيين آخر وانما اعتاد الرهبان والنساك ان يتبركوا بنسبة الأديار الى مار فلان وفلان من الحواريين والشهداء والقديسين والاستشفاع بهم لحماية الاديار فكيف انفرد قاسيون بتسمية شاذّة وكيف لا نجد اليوم بين كل هذه الآثار السريانية والمصاحف الدينية الحافلة في الخزائن الكبرى في الشرق والغرب مصحفاً واحدًا من تركة دير قاسيون يكون قد خُطّ فيه بالارامية او حُبس عليه كالمصاحف الأُخر الشاهدة بتغلب السريانية على بعض اديار الملكيين وقد كان دير مُرّان مشهورًا حتى في الاسلام بصبغته الرومية وانتسابه الى رجال الدولة وكتّاب الخراج وعُمّال الخلافة الاموية كآل سرجون واشياعهم من البيزنطيين او المتأدبين بآداب الروم اللاحقين بهم والمنتمين اليهم ولذلك قال ابن منير الطرابلسي من قصيدة له يذكر فيها متنزهات دمشق وضواحيها واعياد الشعانين التي اكثر الشعراء من وصفها وكانوا يعدّونها من اكبر المواسم :

ويطيبني لدار الروم ما شُهرت بدير مرّان اعياد الشعانين (٢)

وقال ايضاً عرقلة الكلبي متشوقاً الى بعض الحانات اللاحقة بدير مران ومن كان فيها من بنات الروم:

وفي دير مرّان خمّارة من الروم في يوم شعنينها
مستقي على وجهها المشمعي ارق واعتق من دينها (٣)

---

١) الكامل لابن الاثير ٣ : ١٨١
٢) تحفة ذوي الالباب للصفدي باريس ٨٣٢ الورقة ٦
٣) خريدة القصر لعماد الدين الكاتب باريس ٣٣٢٩ ص ٢٦

وقد تتبعنا اكثر المخطوطات الملكية السريانية المحفوظة في اشهر الخزائن الشامية والاوروبية فلم نجد بينها سفرًا واحدًا كتب بمدينة دمشق نفسها او حُبس على احدى بيعها الملكية وانا معظم ما هنالك مصاحف شتى نُسخت او وُقفت على كنائس القرى كالزبداني وصيدنايا ومعلولا وقارة والنبك ودير عطية وهو يزيد ما كنا اول من بادر الى اذاعته وانباته من شواهد الصلاة بالارامية في كنائس برّ دمشق الملكية[1] وكل واقف على تاريخ دمشق يعلم ما كان للروم البلديين فيها من النفوذ والجاه والتفوق اذ كان اكثر كتاب السلطان وعُمّال الدواوين في الاعم الاغلب منهم في زمن كانت حسابات الخلافة الاموية ونقودها لا تعرف من اللغات الا الرومية وحدها وما من احد يجهل ايضًا ما كان لآل سرجون بن منصور مستشار معاوية وابنه يزيد من المنزلة والمكانة في الدولة الناشئة وان سليلهم المشهور بالقديس يوحنا الدمشقي كان من اشد خصوم البدَع النصرانية واكبر انصار الامانة الكاثوليكية وهو لم يكتب مقالاته ومصنفاته الطائرة الصيت الا باللسان الرومي ولا نعلم انه وُجد له الى اليوم سطر واحد في السريانية او العربية فكيف يُعقل ان امثال هؤلاء الحماة الساهرين على الكنيسة يغفلون لحظة عن شد ازر لغة الدين ويدعون الطريق واسعة لاحبة لتغلب النبطية عليها وتسلطها على اعظم اديارهم في قناسيون مع معرفتهم ان السريانية كانت وتتنذ مطية البدَع والضلالات ولسان الشيع والخوارج ولم تكن تموزهم رهبان الروم لإسناد دير مران اليهم ومنهم كثيرون كانوا متوزّعين في كنائس دمشق الخاصة كما حكاه ابن عساكر نقلًا عن ابي مسهر قال وقوله حريّ بان يحتفظ به : « اقام بدمشق بعد فتحها اثنا عشر بطريقًا من بطارقة الروم فأقرّوا في منازلهم وكان لكل بطريق منهم في منزله كنيسة »[2] ولا يخفى قدر هذه الشهادة الراجحة ومنها يتّبين جليًا غلط الذين يزعمون ان الروم باجمعهم جلوا عن دمشق ولم يبقَ فيها الا سكان البلاد من الاراميين والانباط في حين انه كان يكفي الرومي ان يدفع الجزية ليظل

١) تاريخ صيدنايا لنا ص ٢٤ – ٢١

٢) تاريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية ١ : ١٧٣ – ١٧٣

وادعاً مطمئناً في موضعه لا يخشى حيفاً ولا بأساً ولذلك تخلف بدمشق من البيزنطيين واتباعهم كل من كانت مصلحتهُ او مصلحة المدينة تدعوه الى الاقامة وعدم الجلاء. ولنا ايضاً على ذلك شاهد آخر من ابن عساكر لا يُجادل ولا يُمارى وهو ما نقله عن سمرة بن فاتك احد من شهد فتح دمشق قال: «هو الذي تولى قسمة المساكن بين اهلها بعد الفتح... فكان يترك الرومي في العلو ويترك المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي[1] اي خصَّص الطبقات العالية من بيوت دمشق للروم الراضخين للجزية الداخلين في الذمة وهذا القول شاهد صريح بتخلف كل من اراد البقاء من البيزنطيين كالرهبان ورجال الدين والتجار والصناع والأكرة وارباب العقارات من ذوي العلائق فضلاً عن عمّال الدواوين الذين كان الفاتحون لا يستغنون عنهم وهؤلاء كلهم اصل من اصول الاعاجم المستعربين في الاسلام وفرع من فروع الكنيسة الملكية وانضم اليهم في ما بعد جماهير اسرى الروم العديدين في الحروب والناقلةُ من المماليك والخدام والفراشين والغلمان والجواري الذين لم يكن يخلو منهم بيت من بيوت الاشراف والمثرين في الاسلام وليس هنا محل الإفاضة في هذا الباب واقامة الحجج على تألف الروم الملكيين من عنصرَي البيزنطيين والاراميين المتخلقين باخلاق اليونانيين واللاتينيين مدة تناهز عشرة قرون منذ قدم الاسكندر والسلوقيون سنة ٣٣٣ قبل المسيح وخلفهم الرومان والروم الى سقوط دمشق سنة ٦٣٤ وانما استطردنا الى ذكر ما تقدم للتنبيه على امتناع ارامية دير مرّان ولعلنا ابلغنا عذرًا في تصوير الواقع وتبديد كل شك ووهم.

ومن الاوهام التي تعرض لمن طالع اخبار قاسيون ان كل ما جاء باسم الدير من الحوادث والاشعار واوصاف مجالس القصف والشراب كان واقعاً في داخل الدير وازاء مساكن الرهبان وانما هو في الحقيقة كان في المحلة التي نشأت بعد الفتح في جوار الدير ونُسبت اليه لطوافها به وكان بعض العرب المحدثين قد أُعجبوا بما رأوه من محاسن بقعته وإشرافها على وادي دمشق وراقهم ما اجتمع فيها من طيب الهواء وعذوبة الماء. فاقتنوا لهم في ما حوله منازل لهم

[1] تاريخ ابن عساكر ٧ : ٢١

وجنّات تألف منها على ترادف الايام ناحية عُرفت بدير مران لوقوعها بقربة منه واتصالها به والارجح ان اتكاء يزيد على الاغاط بجنب ام كلثوم كما سبق من لفظه لم يكن وراء اسوار الدير ولكن في قصر له اتخذه ليخلو فيه بمن احب اذا جلس للشراب ونُقل عن عبد الملك بن مروان انه كان « يشتو بالصَّنَبْرَة من الاردن فاذا انسلخ الشتاء نزل الجابية . . . فاذا مضت ايام من اذار دخل دمشق فنزل دير مرّان »[1] ومعلوم ما يصحب الخليفة عادة من الحاشية والحَرَم والاتباع والنَّقَل في حلّه وترحاله فيبعد جدًا ان يكون عبد الملك رضي ان ينزل ضيفاً ثقيلًا في كل ربيع على رهبان الدير اذ لم يكن ابتنى له جوسقاً في بقعة الدير ولو لم ينصّ على ذلك احد من المؤرخين ولا شك ان ابنه الوليد توفي في هذا القصر وحُمل منه على اعناق الرجال ليدفن في الباب الصغير[2] كما نقل غير واحد من الاخباريين ومن هنا يتضح غلط ابن الازرق الفارقي الذي زعم انه مات ودفن في دير مرّان[3] وبعد وفاة الوليد صار هذا القصر الى ابنه عبد العزيز وفيه كان يستقبل ندماءه وشعراءه كما رواه ابو الفرج الاصبهاني عن عبد الرحمن بن سعيد الجرمي قال :

« قدم جرير على عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك وهو نازل بدير مرّان فكنّا نغدو اليه بكرًا فيخرج الينا ويجلس في مرتفق خزّ له لا يكلمنا كلمة حتى يجيء طباخ عبد العزيز اليه بقدح من طلاء مسخّن يفور وبكتلة من سمن كأنها هامة رجل فيخرّضها فيه ثم يدفعه اليه فيأتي عليه ويقبل علينا ويحدثنا في كل فن وينشدنا لنفسه ولغيره حتى يحضر غداء عبد العزيز فنقوم اليه جميعاً »[4]

وفي هذا القصر او غيره « شهد عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس عرساً بدير مران لبعض بني مروان »[5]

وفي دير مرّان ايضاً مات قتيلًا خمارويه بن احمد ابو الجيش بن طولون قال الصفدي : « قتله الخدم في ذي الحجة من السنة (٢٨٢ = ٨٩٦ م) بدير مران

١) الجزء الحادي عشر من تاريخ طبعة غريفزولد سنة ١٨٨٣ ص ٣٠٠
٢) العيون والحدائق طبعة ١٨٧١ ص ١٢ والكامل لابن الاثير ٥ : ٢
٣) تاريخ ميافارقين خزانة برتيش موزيوم Or. 5803 f° 76
٤) الاغاني طبعة بولاق ٧ : ٥٥-٥٦
٥) تاريخ ابن عساكر ١٦ : ١١ بدمشق

ظاهر دمشق. وهربوا »[1] ولا حاجة الى القول انه لو كان بين الرهبان لما استطاع خدمه ذبحه ولما تمكنوا من الهرب وقد صرّح سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان انه كان « قد بنى قصرًا بسفح قاسيون اسفل من دير مران يشرب فيه فدخل تلك الليلة الحمام به فذبحه خدمه »[2] وهو ما يؤيد ما زعمناه من نزول الخلفاء الامويين في قصور لهم خاصة في قاسيون في جوار دير مرّان في المحلة المشهورة به .

وقد نقلنا في الكلام على دير مار تاردرس تعريف السمعاني دير مرّان بأنه « بقعة نزهة » على باب دمشق اي باب الفراديس واوردنا شهادة ابن الاثير في اقبال اهل دير مران والأرزة وسطرا برئاسة حميد بن حبيب اللخمي لمبايعة يزيد بن الوليد وكانت الارزة وسطرا قريتين في جوار محلة مران من اشهر متنزهات قاسيون البائدة وهذه شهادة اخرى للمدائني في المعنى نفسه قال : « واقبل حميد بن حبيب اللخمي في اهل دير مرّان والارزة ودخلوا من باب الفراديس »[3] وفي زمان عبد الملك بن مروان « كان الحارث الكذاب من اهل دمشق... وكان يريهم الاعاجيب... وكان يقول لهم : اخرجوا حتى أريكم الليلة فيخرجهم الى دير مران فيريهم رجالًا على خيل فتبعه بشر كثير... فامر عبد الملك بطلبه »[4] ولما مات المعتصم سنة ٢٢٧ / ٨٤٢ « ثارت الغيبة بدمشق وعاثوا وافسدوا وحصروا اميرهم فبعث الواثق اليهم رجاء بن ايوب الحضاري وكانوا معسكرين بترج راهط فنزل رجاء بدير مران ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا فواقعهم الحرب بدومة »[5]

ومن هذه الشواهد يتضح جليًا ان اسم دير مران كان يطلق قديمًا على القصر نفسه اي جماعة قلالي الرهبان وعلى ناحية محدقة به حافلة بالغرف والجواسق والقصور والجنان والحدائق كان ينتابها الخلفاء والامراء والمتنزهون والشعراء.

١) الثامن من الوافي بالوفيات للصفدي . باريس ٢٠٦٤ ص ٣٥
٢) الثاني من النجوم الزاهرة باريس ١٧٧٤ ص ١٩ وتاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٥٤
٣) العيون والحدائق ١٣٧
٤) معجم البلدان لياقوت ٢ : ٣٦٦ - ٣٦٧
٥) الكامل لابن الاثير ٦ : ١٧٢

وعشاق الحور النصرانية مأهولة باربابها من اهل دمشق والغوطة والقربا. وقد مرَّ بنا في جملة هذه الادلة التي نقلنا لفظها بضمة حوادث يخال قارئها لاول وهلة انها حدثت في العصر نفسه وانما هي صدى من احداث محلة مران فلا بد اذن من التروي في التمحيص والاستدلال من قرائن الاحوال لردّ كل خبر الى نصابه ونسبته الى موقعه الحقيقي .

ولا يُعلم بالضبط متى تم خراب الدير نفسه ولكن يترجح ان كل ما روي فيه من الاخبار والاشعار بعد القرن الخامس والسادس يجب ان يعزى بالاحرى الى محلة مران ويظهر ان اثار الدير بقيت شاخصة الى ما بعد القرن الحادي عشر كما يستفاد من ابيات لعبد الرحمن بن حمزة رواها المحبي[1]

وقد اتفق كل المؤرخين والبلدانيين والشعراء على وصف الدير بالنزاهة والنضارة وحسن الموقع وطيب المُطَل لامتداد النظر منه الى حدائق دمشق ورياضها وسهولها وانهارها ونضوا خصوصاً على مزارع الزعفران تحته[2] وهي ولا شك كانت لاحقة بالدير لتخصص الرهبان قديماً بزراعة الزعفران لشدة الطلب عليه في الاسواق ودخوله في الطيوب والاصباغ والمآكل كما نبهنا على ذلك في فصل عقدناه له في كتابنا « الديارات النصرانية في الاسلام »(ص٥٠-٥٧) ولما تقوض الدير ودرست آثاره بقيت شهرة ناحيته بالحسن والبهاء متصلة مشهوداً بها في اجلّ متنزهات دمشق ولا غرو فان مرأى دمشق من تلعة قاسيون من المشاهد الخلّابة التي تفعم الصدر حبوراً والعين بهجة ونوراً ويقلّ جداً وجود نظائر لها في الامصار الشرقية ويكفي تلاوة ما خطّه قلم لامرتين الشاعر الفرنسي الثائر الصيت في وصف قاسيون[3] ومُشرَفه على الغوطة والمدينة معاً للوقوف على شدة إعجاب الغربيين بمنظر من افتن مناظر دمشق :

بحيثُ هواءُ الغوطتين معطَّر النسيم بانفاس الرياحين والزهر

ولا سبيل اليوم لمعرفة شيء من وصف بناء الاديار قديماً وتخطيطها وما

١) خلاصة الاثر للمحبي ٢ : ٢٢٣

٢) معجم ما استعجم للبكري ٣٦٢ ومعجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٦٩

٣) Oeuvres Complètes de M. A. de Lamartine T. VI. Paris 1850 p. 49-50, 74

كانت تشتمل عليه عادة من المعابد والهياكل وقلالي الرهبان وحُجَر الضيوف وبيوت الموائد ومستودعات المؤن والاشربة والغلال والمطاحن والافران والحدائق والحانات وسائر ما يلحق بالبيع والاعمار فلا ندري من ثم من وصف دير مران سوى ما ذكره الخالدي من ان « بناءه كان بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملوّن وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به[1] وزاد العمري على هذه الرواية « ان قلاليه دائرة به واشجاره متراكبة وماءه يتدفق»[2] ويؤخذ من حكاية البنّا. الشاعر الآتية ان بعض قلاليه كانت غاية في التنوّق والزخرفة والاعتناء. ونعت بيتاً منها دخلهُ بانه كان « فضيّ الحيطان رخامي الاركان يضمّ طارمة خيش»[3] وهو ما ينبئ عن غنى الدير واتساعه وحسنه وجلالته واتقان تشييده وكان الى جانبه دار للضيوف ينزلها من شاء من العابرين وابناء السبيل والمتنزهين واللاجئين الى الدير للاستشفاء او الاختفاء عن الغرماء. قال سعيد بن بطريق « لن كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلون فيها ويسكنون فيها »[4] ولما كان الدير كما قال البنّاء « مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر » كان عدد الطارئين عليه او المتطرّحين فيه غير قليل ووصف البنّاء ليلته فيه فقال : « اقبل الليل فطلع القمر ففُتحت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدّى الينا محاسن الغوطة وحيانا بذخائر رياضها من المنظر الجنانيّ والنسيم العطري » ومع ذلك فلم يتهِ الينا من مدائح الشعراء له الا النزر النادر جدًا بالنسبة الى ما رُوي من الخمريات والغزليات التي قيلت في ديارات العراق مثلًا .

ولعل ذلك كان لأن اكثر مزروعات دير مران كانت من الرياحين والازهار وخصوصاً الزعفران ومن الاشجار وقليلًا بينها الكروم والاعناب كما هو الحال اليوم في حدائق الضاحية المعروفة بالحواكير فلذلك لم يتغنَّ الشعراء كثيرًا بدير لم يشتهر بخموره شهرته بطيب موقعه ورياضه ولا سيما لغنائهم عنه

١) معجم البلدان ٢ : ٦٩٩

٢) مسالك الابصار ٣٥٣

٣) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ١٧٧

٤) تاريخه طبعة بيروت ٤٦

بما اجتمع لهم من اسباب التنزه واللهو في المغاني المجاورة له مثل سطرا وعُقرا وبيت لهيا والنيرب من القرى البائدة وهذا ما وقفنا عليه من اقوال الشعراء الذين مرّوا به او ضافوا به قال البيغا :

يا صباحا بدير مران راقا ... هجت منا القلوب والاحداقا
ومشت نسمة تؤمك حتى ... رفعت بالبهير فيك رواقا
واتينا اليك نقطع ارضاً ... ملأتنا الى اللقا إشواقا
وسمعنا الطيور تصدح زهوا ... حيث سكران طيبها ما افاقا
وصبا قياسيون تنفح فينا ... سكبت من هبوصا رقراقا
فجلسنا في مجلس مستطاب ... فيه كأس السرور كان دهاقا
ونظرنا من ربوة الشام مرأى ... قلبنا لم يزل له مشتاقا

ولابن ابي جبلة الدمشقي من قصيدة :

يا دير مران ما لي عنك مصطبر ... وفي فنائك احسان واكرام
مر به للصبا واللهو معتمر ... وللصبابة اجلال واعظام
تسحبت فيه اذيال السحاب فقد ... تفتحت عن جنيّ الورد اكمام
وللحمائم إفصاح يذكّرنا ... احبابنا ولنا بالسكر إعجام
دير تمتّ زمانا في مسارحه ... كأن ايامه في الحسن اعلام
شامه هو وزّان ومنتقد ... وقته هو خمّار وكرّام (١
فيه جنيت ثار اللهو عن طرب ... وصاحبا رحليّ الابريق والجام
اشتاقه شوق صبّ لا يفارقه ... فكل يوم لنا في الدير إلمام
يا دير لا فارقتك الساريات لها ... على ثرى ربعك الفيّاح الهمام (٢

١) تاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٩ : ١٣٤
روى ابن عساكر هذه القصيدة بزيادة خمسة ابيات بعد البيت الخامس وذكر في عجزه « معطرانه » بدلاً من « وقته » وهذه هي الزيادة في وصف الذئب الاسود والخمرة قرأها في كتاب الديرة للسياطي :

كأنما بينه من رحمة وهوى ... وبين معترشات الكرم ارحام
حتى اذا الكرم امسى عقده نسجاً ... وكان درا ولم ينظمه نظام
غدا ويراح له من دونه خلف ... وبين منظومه نقض وابرام
وقال يبطل في بيع اماته ... فهن بين عدات يومها عام
وجاءه خطابها الاكفاء فاجتليت ... حسنا وليس لها عاب ولا ذام

٢) مجلد فيه مختارات من الاعلاق الخطيرة لابن شداد خزانة ليدن Arab. 1466 f° 63

ولابي بكر الصنوبري من قصيدة :

امرُ بـدير مران فاحيا واجمل بيت لهوي بيت لحيا
وبـرد غلّني بردى فـتيـا لايـام عـلى بردى ورعيا
ولي بباب جيرون ظباء أعاطيها الهوى طيبـا فطيبـا
ونسم الدار داريّاً فقيها حلا لي العيش حتى صار أريا (١

وله ايضاً :

متى الأرحُل خطوطه وغير الشوق مربوطه
بـاعلى دير مران وداريـا الى الغوطه
فشطّي بردى في جـ ـبِ بُسط الروض مبسوطه
رباع خبط الاحـا رُ منها خير موطه
وروض احسنت تكتـ ـيه المزن وتغيطه
ومدّ الورد والآس لنا فيه فـاطيطه
ووالى طيره ترجيـ ـعَه فيه وتغطيطه
عل لا وَنَتْ فيه مزاد المزن معطوطه(٢

ولكشاجم عدة قصائد ومقطعات في الدير اشهرها قصيدة في مديح الدير ورهبانه وتنسب ايضاً الى ابي بكر الخالدي ولعلها من الابيات التي دسّها السري الرفاء في ديوانه :

حاسن الدير تسبيحي ومـصاحي(٣ وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اقمت فيه الى ان صار هيكله بيتي ومفتاحه للانس مفتاحي
متادماً من قلاليه رهابنة راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل ابدان بمرفقة منهم لطافة ابدان وارواح
ووشّحوا غرر الاداب فلسفة وحكمة بعلوم ذات اوضاح
في طب بقراط لحن الموصلي وفي نحو المبرّد اشعار الطرمّاح
ومنشد حين يبدجا البزال لنا ألمع برق سرى ام ضوء مصباح

١) معجم البلدان ٢ : ٦٩٦

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٦

٣) في الاصل « وتصباحي » وفي رواية اخرى « وتسباحي » ولم يرد مصدر تصباح او تسباح في اللغة كما لم تجواب او تجوال وما نظن الاصل الا « مسباحي » بلفظ الآلة بمعنى مسبحة مقابلة لقوله في الشطر الثاني مصباحي .

اخلقت في العمر عمري حين راحاني غير البطالة فلي غير مرتاح
ما نور احداقنا الا حدائقه لام الوائم فيها او لحى اللاحي
بُسط البنفسج والنثور تبسط في صحون آس وخيريات تفاح
بدائع لا لدير العلث منّ ولا لدير حنّة من ذات الأكيراح
فكم حننت الى حافاته وعدا صوتي بكائر اصواتاً باقداح
حتى تحسر خماري بمرفقي وحيرت مُلحي في السكر ملّاحي
يا دير مران لا تعدم ضحى ودجى سجال كل ملثّ الودق سحّاح
ان تُغنِ كأسك اكياسي فان بها بقل جيشَ همومي جيشُ افراحي
وان أقم سوق اطرابي فلا عجب هذا بذاك اذا ما قام نوّاحي[1]

وله ايضاً :

هل احد نال لذتنا بدير مران ليلة الاحد
يا طيب يومي به واسي ويا حسن غدي بعده وبعد غد
جداول فوق جدول صخب وباقة تحت طائر غرد[2]

وله ايضاً :

لا تُغنِ عمر الزمان الا ما بين قلاية وعُمر
يا دير مران كم غزال فيك وكم جنة وزهر
فكم تطربت مستهاما اليك اذ عيل فيك صبري
وفي يميني شمال شمس وفي شمالي يمين بدر[3]

وله كذلك :

سقيا لليل قصّرت مدته بدير مران مر مشكورا
يوم اتيناه زائرين فما دفنا به روضة وماخورا
وبات بدر الدجى يشمشمها نورية غلّة الدجى نورا
غارت على نفسها وقد سفرت فعاد جيب الحباب مزرورا
حتى رأيت الظلام يدرجه النثر ب ودرج الصباح منشورا
فاختلط الليل والنهار كما تخالط كفّ مسكا وكافورا[4]

---

١) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٣٦ – ٣٧ ويتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ٥١٢

٢) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٥٦

٣) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٨٥ – ٨٦ وتاريخ ابن عساكر بالظاهرية ١٦ : ١٤٤ ظهر

٤) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٨٧ وزهر الاداب للحصري حاشية العقد الفريد ٣ : ٥١ وبين الديوان وزهر الاداب نقص وزيادة واختلاف في الرواية .

ولمحاسن الشوّا الحلبي يذكر مستنزهات دمشق :

عاطياني حديث سطرا ومقرا وابسطا لي في هجري الكأس عذرا
انا مالي وشرب كاسات خمر شغلتني عنهنّ كأسات ذكرى
كم نعمنا في بيت لهيا بلهو وعلونا بالقصر والسهم قصرا
ومررنا بدير مران نشدو فيه نظما ونسجع الورق نثرا[1]

وروى البكري والعمري وغيرهما ابياتاً للحسين بن الضحاك ذكروا انه قالها للرشيد في دير مران واولها فيما زعموا :

يا دير مران لا عُرّيت من سكن قد هجتَ لي حزنا يا دير مرانا

والصواب يا دير مِدْيانا بالدال والياء. وهو دير على نهر كرخايا قرب بغداد[2] ومن العجب ان العمري استشهد ببعض هذه الابيات في كلامه على الديرين باسم كل منهما دون ان ينتبه الى ما في احدهما من التحريف وما في استشهاده بها في الموضعين من الذهول والتناقض.

وقد تقدم قول سعيد بن بطريق ان دير مران كان المسلمون ينزلونه ويسكنون فيه وهذا القول ينطبق ايضاً على سائر الديارات في الاسلام ولذلك كان في اكثرها دور او حُجَز للضيافة بمنزل عن القلالي وغالب من ينتابها قوم من المتنزهين عشاق المدام . واحياناً من المرضى المنتجعين للعافية لان الرهبان كانوا يحسنون طب النفوس وطب الاجساد وقد وصفهم الحساندي بالتفوق في « الفلسفة والحكمة وطب بقراط » ويظهر ان بين المصابين اللاجئين الى الدير بعض الموسوسين والمجانين وقد نقل العمري حكاية عن المبرّد قال فيها : « وافيت الشام وانا حدث في جماعة احداث لاكتب الحديث والقى اهل العلم فاجتزت بدير مران فاحببت النظر اليه فصعدناه فرأيت منظراً حسناً واذا في بعض بيوته كهل مشدود حسن الوجه عليه اثر النعمة فدنونا منه وسلمنا عليه فردّ السلام» وانشد ابياتاً في البكاء من الفراق والحنين الى الاحبة قال في آخرها :

اني على العهد لم انقض مودتهم فليت شعري لطول العهد ما فعلوا

قال المبرّد فقال له فتى من المجّان الذين كانوا معي : ماتوا فقال : فأموت ؟

١) الثالث من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ باريس ٦٦
٢) معجم البلدان ٢ : ٦٠٥

فقال له : مُتْ فتمطّى وتمدّد وما برحنا حتى دفناه »[1]. ولم يذكر العمري عمن نقل هذه الحكاية كعادته في كل ما يرويه وساقها التوزري بالفاظ أخر وحكى انه خرج وجماعة من اصحابه مع المأمون وبرّ بهم بدير كبير في الرقّة وسرد بقية القصة بالمعنى نفسه[2] ورواها ايضاً الحسالدي في دير هزقل بين البصرة وعسكر مكرم[3] وهو كافٍ لاثبات ان الحكاية من الاقاصيص الموضوعة للهو والسمر وهي متناقضة فلا يُلتفت اليها ولكن روى ابن عساكر قصة رابعة لا يبعد ان تكون وقعت حقاً اسندها الى ابي عثمان النصيبي من اهل التصوف قال :

« كنت سائحاً ببلاد دمشقَ وعلي خرقتان واحدة في وسطي واخرى على كتفي فانتهيت الى دير مران والثلج يسقط مثل الورق فاطّلع الي راهب من غرفة وقد لويت عن باب الدير فقال : بحق من خرجت من اجله الّا عدلت الى الدير فرجعت نحو باب الدير فاستقبلني منه واخذ يدي وصعدنا الى غرفة حسنة الآلة فاقمت عنده ثلاثاً في حسن عشرة فاستحسنته فقلت يا راهب اراك عاقلاً فكيف اقمت على النصرانية فقال : قد قرأت المسطور يعني القرآن ولو قُضي شيء لكان وهمت بالسير فرام وقوفي فقلت : قال نبينا صلوات الله عليه وسلامه للضيف ثلاثة فما زاد فهو صدقة فقال : صدق نبيكم ولكن من الضيف على صاحب البيت فقلت اراك اديباً أبالك عن شيء فقال : قل فقلت : ما صفة المحبة فقال : للمحبة لا صفة لها ولكن ان اردتَ اصف لك شيئاً من ادب المحبة فقلت : قل قال : ادناه ان لا يزيد بالبرّ ولا ينقص بالجفا ونهضت فقام معي وتركنا الى صحن الدير واذا باب مردوم فقال لي : ادفعه فدفعت الباب واذا شاب حسن الشباب في عنقه سلسلة مشدودة الى السقف قمنه من الجلوس فقلت ما هذا فقال كفّه فقلت ما اسمك يا فتى ؟ فقال عبد المسيح فقلت ما وقوفك ههنا ؟ فقال عبد المسيح فقلت اما تؤلمك السلسلة ؟ فقال عبد المسيح فالتفت الى الراهب فقلت ما هذا ؟ فقال : هذا البيان وذاك الخبر او كما قال[4] »

ومن انكد حظوظ الديارات النصرانية واسوإها مغبّة واثرًا الشروط المشترطة على الرهبان في الاسلام بضيافة كل مجتاز بهم من المارّة وابناء السبيل[5] دون ان يكون لهم اقل حق في التمييز بين الاشراف والسفلة فكانت

١) مسالك الابصار ٣٥٣ - ٣٥٤
٢) غاية الارب ٢ : ١٩٠ - ١٩١
٣) معجم البلدان ٢ : ٧٠٦ - ٧٠٧
٤) مجلد من مختصر تاريخ ابن عساكر لابن ابي شامة ، باريس ٢١٣٧ ص ١٩٤
٥) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف ١٦٥

مساكنهم من ثم وخلواتهم في نظر العابرين والمسافرين كالخانات والحانات ينزلها الاضحاء المغرمون بالقصف والشراب والاعلاء المبتلون بالماهات والاسقام وربما كان بينهم المفاليس الذين قعدت بهم حالهم عن اداء ما وجب عليهم من بقايا الضمانات السلطانية او ديون لزمتهم للغرماء فكانوا يؤثرون حبس نفوسهم في الاديار في ضيافة الرهبان بدلًا من التعرض لاخطار احكام القضاء والاعتقال في مضيق السجون وذلك ريثما يتسع الوقت لاهلهم واصحابهم لتسوية امرهم وحط بعض المال عنهم ومن اغرب ما روي في هذا الصدد وابلغه وقة وظرفاً ما حكاه بلفظه البيغاء شاعر سيف الدولة وقد اتفق له مرة بدمشق ان عاشر في الدير احد هؤلاء الهاربين من وجه السلطان من ابناء المادرائيين بيت رئاسة ووزارة ووصف ليلة قضاها معه ذكر فيها لقاءه له في الحفاء في « بيت فضّي الخيطان رخاميّ الاركان » وشرح بافصح عبارة مناداته له ومبيته عنده شرحاً تتمثل من خلاله حياة هؤلاء الاضياف الذين أباحت لهم عزّة السلطان وذلة الرهبان التبسط وعدم الانقباض في جوار المصلّيات والمعابد عن كل ما تطالبهم به النفس من الملاذ والشهوات وهذا اهم ما خطه قلم البيغاء برواية الثعالبي قال الثعالبي: « لم اسمع اظرف من حكايته في فنها ولا الطف ولا اعذب ولا اخف وان كان فيها بعض الطول والبديع غير مملول ». قال ابو الفرج :

« تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرهاً وقد سار عنها في بعض وقائعه وكان اخطر شديداً على من اراد اللحاق به من اصحابه حتى ان ذلك كان مؤدياً الى النهب وطول الاعتقال واضطررت الى اعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من جا من وزراء الدولة الاخشيدية وكان سنّي في ذلك الوقت عشرين سنة وكان انقطاعي منهم الى ابي بكر علي بن صالح الروزباري لتقدمه في الرئاسة ومكانه من الفضل والصناعة فاحسن تقبلي وبالغ في الاحسان بي وحصلت تحت الضرورة في المقام فتوفر على قصد البقاع الحسنة والمتنزهات المطرقة تسليًا وتنزّلًا فلما كان بعض الايام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر فاستصحبت بعض من كنت آنس به وتقدمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه اخذنا في شأننا وقد كنت اخترت من رهبانه لشرفنا من توسمت فيه دقة الطبع وسجاحة الخلق حساجرى به الرسم في غشيان الاعمار وطروق الديرة من التطرف بشرة اهلها والانسة بكلفها ولم تزل الاقداح دائرة بين مضرب التناء وزاهر المذاكرة الى ان قضّ الليل ختامه ولوّح السكر لصحبي اعلامه وحانت مني نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطابي متوثباً ولنظري اليه مترقباً فلما اخذته عيني اكبّ يزعجني بخبر

الغمز ووحيّ الايماء فاستوحشت لذلك وانكرته ونهضت عجلًا واستحضرته فاخرج الي رقعة مختومة وقال لي : قد لزمك فرض الاجابة فيما تتضمنه هذه الرقعة وولى وسقط ذمام كلامها في ستره بك عني ففضضتها فاذا فيها باحسن خط واملحه واقربه واوضحه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

لم ازل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاي بين حزم يحثّ على الانقباض عنك وحسن ظن يحضّ على التسامح بتغبير الحظ منك الى ان استنزلتني الرغبة فيك على حكم الثقة بك من غير خيرة ورفعت بيني وبينك سُجُف الحشمة فأطعت بالانبساط اوامر الانسة وانتهزت في التوصل الى مودتك فأنت الفرصة والمُستاح منك — جعلني الله فداك — زورة ارتجع بها ما اغتصبته به الايام من المسرة مهنأة الانفراد الا من غلامك الذي هو مادة مسرتك « وما ذاك عن خلق يضيق بطارق » ولكن لاخذي بالاحتياط على حالي فان صادف ما خطيته منك ايدك الله قبولًا ولديك قفاقًا تُنْبِيه غفل الدهر عنها او فارق مذهبه في ما اعداه الي منها وان جرى على رسمه في المضايقة في ما أوثره واهواه وانرقبه من قربك وامتناه فذمام المروّة يلزمك ردّ هذه الرقعة وسترها ونناسيها واطّراح ذكرها »

واذا بابيات تتلو الخطاب وهي :

يا عامر الدُّور بالفتوة والتصـ ـف وحث الكؤوس والطرب
هل لك في صاحب تناسب في الـ ـغربة اخلاقَـهُ وبالادب
اوحشه الدهر فاستراح الى قربك مستنصرًا على النُّوَب
فان تقبلت ما اتاك به لم تُسِئ الظن فيه بالكذب
وان أتى الزهد دون رغبتنا فكن كمن لم يتل ولم يُجِب

قال ابو الفرج : فاتى علي ما حيرني واسترد ما كان الشراب حازه من تحيزي وحصل لي في الجملة ان اغلب الاوصاف على صاحبها الكتابة خطًا وترسّلًا ونظمًا فشاهدته بالفراسة من الفاظه وحمدت اخلاقه قبل الاختبار من رقعته وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه فقال : اما ذكر حاله فاليه اذا اجتمعنا واما السبيل الى لقائه فتسهّل ان شئت قلت : دُلّني قال : تظهر فتورًا وتتصنّع عذرًا تفارق به اصحابك منصرفًا واذا حصلت بباب الدير عدلت بيدك الى باب خفيّ تدخل منه فرددت الرقعة عليه وقلت : ارفعها ليتأكد انسه بي وسكونه الي وعرّفه ان التوفر على إعمال الحيلة في المبادرة الى حضرته على ما آثره من التفرد اولى من التشاغل بامداد جواب وقطع وقت بمكاتبته ومضى الراهب وعدت الى اصحابي بغير النشاط الذي خفت به فانكروا ذلك فاعتذرت اليهم بشيء عرض لي واستدعيت ما اركبه وتقدمت الى من كان معي ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم وقد كنا عملنا على المبيت فاجمعوا على تعجل السكر والانصراف وخرجت من باب الدير ومعي صبي كنت آنس به وبخدمته وتقدمت الى السّاكري برد الدابة وستر خبري وباكرني وتلقاني الراهب وعدل بي الى طريق في مضيق وادخلني الى الدير من باب غامض وصار بي الى باب قلاية متميز عما يجاوره من الابواب نظافة وحسنًا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة فابتدرنا منه غلام كأن

البدر ركّب على ازراره . . . ثم اجفل كالظبي المذعور وتلوّنَ والراهب الى صحن الفلاية فاذا انا ببيت فضّي الحيطان رخامي الاركان يضم طارمة خيش بحصير مستعمل فوثب الينا منه فتى مقتبل الشبيبة حسن الصورة ظاهر النبل والهيئة مُثرٍ من اللباس بزيّ غلامٍ فلقيني حافيًا يعثر بسراويله واعتنقني ثم قال : انما استخدمت هذا الغلام في تلقّيك يا سيدي لاجل ما لعلمك استحسنته من وجهه مصانًا عما ترد عليه من مشاهدتي فاستحسنت اختصاره الطريق الى بسطي وارتجاله النادرة على نفسه حرصًا في تأنيسي وافاض في شكري على المسارعة الى امره وانا اواصل في خلال سكناته المبالغة في الاعتداد به ثم قال يا سيدي انت مكدود بمن كان معك والاستتباع بمحادثتك لا يتم الا بالتوصل الى راحتك وقد كان الامر على ما ذكر فاستلقيت يسيرًا ثم غفت فحُدت في حالتي النوم واليقظة المدة التي أنفقتُها في دور اكابر الملوك واجلّة الرؤساء .

واحضرنا خادم له لم ارَ احسن منه وجهًا ولا سوادًا طيّبًا بسم ما يتّخذ للضيف مما خف وللف فقال : الأكل مني يا سيدي للحاجة ومنك للمباحة والمساعدة فنلنا شيئًا واقبل الليل فطلع القمر فنُحيت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدّى الينا محاسن الغوطة وحيانا بذخائر رياضها من المنظر الجناني والنسيم العطري وجاءنا الراهب من الاشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ثم اقتدنا غارب اللذة وجرينا في ميدان المفاوضة فلم يزل يناهبني نوادر الاخبار ومُلح الاشعار ويخلط ذلك من المزح باظرفه ومن التودد بالطفه الى ان توسطنا الشراب فالتفت الى غلامه وقال له :

يا مُعرّف ان مولاك ما ادّخر عنا السرور بحضوره وما يجب ان تدخر ممكنًا في مسرته فامتقع وجه الغلام حياءً وخفرًا فاقسم عليه بحياته وانا لا اعلم ما يريد ومضى فعاد يحمل طنبورًا وجلس فقال لي : يا سيدي تأذن لي في خدمتك ؟ فهممت بتقبيل يده لما تداخلني من عظم المسرة بذلك فاصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكي وهو ملكي ومالي ثوب نسكي
تَرَه بعين الهوى فيـ ـك عن تعرّض شكي
لولاك ما كنت أبكي الى الصباح وأبكي

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت ان الشعر له فكدت والله اطير طربًا وفرحًا بلاحة خلقه وجودة ضربه وعذوبة الفاظه وتكامل حسنه فاستدعيت كيزانًا فاحضرنا الخادم عدة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورًا بوجهه وشرب بمثل ما شربت ثم قال لي : انا والله احب ترفيهك وان لا اقطعك عما انت متوفر عليه ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد ان تُشيّ ليلتنا بشيء يكون لها طرازًا ولذكرها معلمًا فجذبت الدواة وكتبت ارتجالًا وقد اخذ الشراب مني :

وليلـة اوسعتـني حسنًا ولهوًا وانسا
ما زلت الثم بدرا جا واشرب شمسا
اذ اطلع الدير سعدا لم يُبقِ مذ بان غمّا
فصار للروح مني روحًا وللنفس نفسا

فطرب على قولي « الم بدرا واشرب شمسا » وجذب غلامه فقبّله وقال : ما جهلت ما يجب لك يا سيدي من التوقير وانما اشتدت تعديفك في ما ذكرته فبحياتي الا فعلت مثل ذلك بغلامك فاثبت ايثاره خوفاً من احتشامه واخذ الابيات وجعل يرددها ثم اخذ الدواة وكتب اجازة لها :

ولم اكن لمريي والله ابذل فلسا
لو ارتضى لي خصمي بدير مران حبسا

فقلت اذاً والله ما كان احد يؤدي حقاً ولا باطلاً وداعبته في هذا المعنى بما حضر وعرفت في الجملة انه مستتر من دين قد ركبه وقال لي : قد خرج لك اكثر الحديث فان عذرت والا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها فتبينت ما يؤثره من كتمان امره فقلت له : يا سيدي كل ما لا يتعرف بك نكرة وقد اغنت المشاهدة عن الاعتذار وفاءت العبرة عن الاستخبار وجعل يشرب ويخبب علي من غير اكراه ولا حث ولا استبطاء الى ان رأيت الشراب قد دبّ فيه واكبّ على مجاذبة غلامه والغطنة لتنبيه في الوقت بعد الوقت فاظهرت السكر وحاولت النوم وجاء الغلام ببردعة فغرشها لي بازاء بردعته فنهضت اليها وقام يتفقد امري بنفسه فقلت له ان لي مذهباً في تقريب غلامي مني واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذا الحال في غلامه فتبسم وقال لي بسكره : قد جمع الله لك شمل المسرة كما جمعه لي بك واظهرت النوم . . . وغلبتني عيناي الى ان ايقظني هواء السحر . . فازدت توديعه وجاذرت إنباهه وازعاجه فخرجت ولقيني الخادم يريد ايقاظه وتدريقه انصرافي فاقسمت عليه ان لا يفعل ووجدت غلامي قد بكر بما اركبه كما كنت امرته فركبت منصرفاً وعاملاً على العود اليه والتوفر على مواصلته واخذ الحظ من معاشرته ومتوهماً ان ما كنت فيه مثام طيبه وقرب اوله من آخره واعترضتني اسباب أدّت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على اتم حسرة لما فاتني من معاودة لقائه وقلت في ذلك :

ويوم كأن الدهر ساعني به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه افراس الصبابا بارتياحنا الى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطر النسيم بانفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن خمر بالقيض يجري الى خمر
وفي الهيكل المعمور منه افترعتها وصحبي حلالا بعد توقية المهر
وترّهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها اشرب التبر بالتبر
وحلّ لنا ما كان منها محرّما وهل يُحظر المحظور في بلد الكفر
فاهدت لي الايام فيه مودة دعتني في سكر فلبّيت في سكر
الى من شريف الطبع اصدق رغبة تخاطبني عن معدن النظم والنثر
وكان جوابي طاعة لا مقالة ومن ذا الذي لا يستجيب الى البشر
فلاقيت منّ العين نيلا ومنة على السجايا بالطلاقة والبشر
واحسني بالبر حتى ظننته يريد اختداعي من حياتي ولا ادري
وترّه عن غير الصفاء اجتماعنا فكنت واياه كقلبين في صدر

وشاء السرور ان يلينا بثالث ... فلاطفنا بالبدر او بأخي البدر
يغطي عيون ما اشتهت من جماله ... ويُضني قلوبٍ بالتجنب والهجر
جنينا جنيّ الورد في غير وقته ... وزهر انربى من روض خديه والنمر
وقابلنا من وجهه وشرابه ... بشمسين في جُنحي دجى الليل والشهر
وغنّى فصار السمع كالطرف آخذاً ... بأوفر حظ من محاسنه الزهر
واسمعنا من وجنتيه بمثل ما ... تزوّج كفّاه من الماء والخمر
سرور شكرنا منّة الصحو اذ دعا ... اليه ولم نشكر به منّة السكر
كأن الليالي يُمنَ عنه فعندما ... تنبّهن نكبين الوفاء الى الغدر
مضى وكأني كنت فيه مُتَرْجِماً ... يحدّث عن طيف الخيال الذي يسري
وهل يحصل الانسان من كل ما به ... تساعده الايام الا على الذكر

ولم ازل على اتم قلق واعظم حسرة واشد تأسف على ما سُلبته من فراق التي لا سبيل احصل منه على حقيقة علم ولا يتبين خبر يؤديانني الى الضع في لفائه الى ان عاد سيف الدولة وانا في جملته فما بدأت بشيء قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج الي مرعوباً وهو لا يعرف السبب فلما رآني استطار فرحاً واقسم ان لا يخاطبني الا بعد النزول والمقام عنده يومي ذلك ففعلت فلما جلسنا للمحادثة قال لي : ما لي لا اراك تسأل عن صديقك قلت : والله ما لي فكر ينصرف عنه ولا اسف يتجاوز ما حُرمته منه ولا سررت بعودي الى هذه البلدة لا من اجله ولذلك بدأت بفصدك فاذكر لي خبره فقال لي : اما الآن فنعم هذا فتى من المادرائيين جليل القدر عظيم النعمة كان ضمنَ من سلطانه بمصر ضياعاً بمال كثير فخاس به ضمانه لفقود السعر واشرف على الخروج من نعمته فاستتر ولما اشتد البحث عنه خرج متخفياً الى ان ورد دمشق بزي تاجر فكان استتاره عند بعض اخوانه ممن اخدمه فاني عنده يوماً اذ ظهر لي وقال لصديقه اني اريد الانتقال الى هذا الراهب انه كان علي مأموناً فذكر له صديقه مذهبي واظهرت السرور بما رغب فيه من الانس بي . وانا لا اعرفه غير ان صديقي قد امرني بخدمته وحصل في قلايتي فواصل الصوم فلما كان بعد ايام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد حملنا به ومعها مفاتيح وعليها ثياب رثّة فلما نظر الى الغلام قال : يا راهب قد حلّ الفطر وجاء العيد ووثب اليه فاعتنقه وجعل يقبّل عينيه ويبكي ووقف على المفاتيح فاخذها مع درج رقعة منه الى صديقه فلما كان بعد يومين حمل اليه الفي دينار وقال له : ابتع لنا ما نستخدمه في هذه الضيعة فابتاع آلة وفرشاً ولم يزل مكباً على ما رأيت الى ان ورد اليه بالبغال والآلات الحسنة وكتب اهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعريفهم اياه بالحال في بعده عن وطنه لضيق ذات يده مما يُطالب به والتوقيع بخطيطة المال عنه مقترن بالكتب فلما حمل على المصير قال لغلامه سلّم ما بقي معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه في مصالح الدير الى ان نواصل تنفقه من مستغرنا وسار وما له حسرة غيرك ولا اسف الا عليك يقطع الاوقات بذكرك ولا يشرب الا على ما يشبّه الغلام من شبهك وهو الآن بمصر على افضل الاحوال واجلّها ما يبخل بتفقدي ولا يُنبّ برّي فتعجلت

بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره واتممت يومي عند الراهب وكان آخر العهد به(١).

ولا يخفى على احد ان الرهبان الذين كانوا يخالطون الزوار والاضياف ويتولون تفقدهم وقضاء حاجاتهم كانوا في الاعم الاغلب من الشمامسة المرصدين لخدمة الدير والسعي في مصالحه بينما كان الرهبان القسوس معتزلين في قلاليهم منقطعين الى اشغالهم عاكفين على التلاوة والعبادة واستثمار ما لديهم من الحدائق وقد اطنب كشاجم الشاعر المشهور في وصف رهبان دير مران عامة بحسن الخلق ورقة الطباع ومتانة الدين واخلاص التقوى واشار الى تضلعهم من علوم الفلسفة والحكمة والطب والالحان والنحو والشعر وقال من قصيدة تقدم الاستشهاد ببعض ابياتها :

محاسن الدير تسبيحي ومصباحي ... وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اقمت فيه الى ان صار هيكله ... بيتي ومفتاحه للحسن مفتاحي
منادماً في قلاليه رهابنةً ... راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل اديان ومعرفة ... فيهم بخفة ابدان وارواح
ووشّحوا غرر الآداب فلسفة ... وحكمة بعلوم ذات ايضاح
في طب بقراط لحن الموصلي وفي ... نحو المبرّد اشعار الطرمّاح(٢)

وناهيك بمثل هذا المديح من احد مؤرخيهم العارفين بهم للدلالة على ما تحلّوا به من الفضل والفضيلة والنزاهة عن ملابسة العار والبعد عن كل ريبة.

ويظهر انه كان الى جانب دير الرهبان بنيّة خاصة بالراهبات وهو ما يتحصّل من قولٍ عون الدين بن العجمي من قصيدة له في مدح الملك الناصر صلاح الدين داود الايوبي :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً ... بضامر لم يكن في سيره وانِ
ان جزت بالشام شيخ تلك البرى ولا ... تعدل بلغت المنى عن دير مرّان
واقصد علالي قلاليه تلاقِ بها ... ما تشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام اذا ... ماست فيا خجلة المرّان والبان
وكل اسمر قد دان الجمال لهُ ... وكل الحسن فيه فرط احسان(٣)

---

١) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ٤ : ١٧٤ – ١٨٣ . ومطالع البدور في منازل السرور للغزالي ١ : ٢٥١ – ٢٥٧

٢) يتيمة الدهر ١ : ٥١٢ – ٥١٣

٣) فوات الوفيات للصلاح الكتبي ١ : ٢٢٥ – ٢٢٦

ولا غرو في هذا الوصف فقد اشتهر اهل دمشق في كل حين بالصباحة والجمال وهذه الابيات هي الشاهد الفرد الذي وقفنا عليه بوجود الراهبات في دير مران .

ومن نزل دير مران من بني امية بعد يزيد بن معاوية وامرأته ام كلثوم كما ذكرناه آنفاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك واخوه العنبر ونزله ايضاً من العباسيين الرشيد والمأمون وحكي عن ابرهيم الموصلي انه قال :

« مرّ الرشيد بدير مران فاستحسنه ونزله وامر ان يؤتى بطعام خفيف فأتي به وأتي بالشراب والندماء والمغنين فخرج اليه صاحب الدير وهو شيخ كبير مَرِم فوقف بين يديه ودعا له واستأذنه في ان يأتيه بشيء من طعام الديارات فاذن له فاتاه باطعمة نظاف وإدام في غاية الحسن والطيب فاكل منها اكثر اكل وامره بالجلوس فجلس معه يحدّثه وهو يشرب الى ان جرى ذكر بني امية فقال له الرشيد : هل نزل بك احد منهم فقال : نعم نزل بي الوليد بن يزيد واخوه العنبر فجلسا في هذا الموضع وشربا وغنّيا فلما دب فيها السكر وثب الوليد الى ذلك الجرن فملأه وشربه وملأه وسقى اخاه العنبر فما زالا يتعاطيانه حتى سكرا وملأه لي دراهم فنظر اليه الرشيد فاذا هو عظيم لا يقدر ان يُقِلّه ولا يقدر ان يشرب ملأه فقال ابى بنو امية الا ان يسبقونا الى اللذات سبقاً لا يجاريهم فيه احد ثم امر برفع النبيذ وركب من وقته »(١ .

وفي تاريخ ابن كثير ان في سنة ٢١٥ (٨٣٠ م) « سار المأمون في جحافل كثيرة الى بلاد طرسوس فدخلها في جمادى الاولى وفتح حصناً هناك عنوة وامر بهدمه ثم رجع الى دمشق فنزلها وعمر دير مران بسفح قاسيون واقام بدمشق مدة »(٢

ولا ريب ان ابن كثير يريد بقوله « عمر الدير » ما رواه ابن عساكر عن احمد بن الخير الوراق الدمشقي قال :

« لم يزل ملوك بني العباس تحف الى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر منهم المأمون فانه اقام بها واجرى اليها قناة من نهرين في سفح جبلها الى معسكره بدير مران وبنى القبة التي في اعلى جبل دير مران وصيّرها مرقباً يوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى ما في عسكره اذا جنّ عليه الليل »(٣ .

---

١) مسالك الابصار للعمري ٣٥٥ – ٣٥٦

٢) البداية والنهاية ١٠ : ٢٦٩

٣) تاريخ ابن عساكر ١ : ١٧٩

ونقل الاصبهاني عن الصولي وعمرو بن بانة ان المعتصم زار ايضاً دير مران[1] ويؤخذ من الابيات التي انشده فيه الحسين بن الضحاك ان الزيارة كانت لدير مدْيان على نهر كِخايا كما سبقنا ونبهنا على ذلك .

وتتابع الامراء والقواد على احتلال محلة دير مران كلما اضطرتهم الاحوال الى نزول دمشق وقد اشرنا قبلاً الى القصر الذي بناه في محلة الدير خمارويه ابو الجيش بن طولون ولما نشبت المعركة بين خمارويه والامير محمد بن ابي الساج في ثنية العقاب وانهزم ابن ابي الساج قال البحتري يمدح ابا الجيش :

اما كان في يوم الثنية منظر ومستمع بني عن البطشة الكبرى
وعطف ابي الجيش الجواد بكرة مدافعة عن دير مران او مقرى[2]

ومن الغريب الذي يحار فيه فهم اللبيب ان دير مران على شهرته وتقدم عهده وجلالة بنائه لم تذكر كنيستهُ في جملة الكنائس الاربع عشرة التي أُخذ عليها العهد بعد الفتح ولذلك زعم بعض المؤرخين ان عمر بن عبد العزيز لما شكا اليه النصارى خروج كنيستهم الكبرى من ايديهم وإحلال الجامع الاموي محلها خيَّرهم بين ردّهـا عليهم وهدم كل الكنائس التي حول دمشق والغوطة كدير مران وباب توما والراهب في العقيبة وبين التخلي عنها وتسجيل بقية الكنائس لهم انهم آمنون عليها ان تخرب او تسكن[3] فاختاروا التسجيل

ومن تدبّر اقوال الرواة في هذه المصالحة واختلافها في تعيين الكنائس التي أقطعت عوضاً عن كنيسة يوحنا يدرك جلياً ان معظم هذه الروايات وُضع بعد الفتح في القرن الثاني للاعتذار عن اغتصاب مار يوحنا وتنزيه الجامع الاموي عن كل شبهة حيف وظلم وحسبك من الشواهد على مـا هنالك من التباين والتناقض انهم اتفقوا جميعاً على ان كنيسة مريم كانت في عداد الكنائس الاربع عشرة المُصالَح عليها ومع ذلك فقد نقل العمري عن المغيرة المقري وكان في ايام الوليد ان الوليد اعطى النصارى في نظير نصف كنيستهم الكبرى اربع

---

١) الاغاني ٦ : ١٥٩
٢) » » » »
٣) مسالك الابصار ١٩٠

كنائس هي كنيسة حُميد بن درة وكنيسة سوق الجبن وكنيسة مريم وكنيسة المصلّبة[1] فكيف تكون كنيسة مريم داخلة مع الكنائس الثلاث المذكورة في العهد ثم تعطى بعد كأنها خارجة عنه ثم اختلفوا ايضاً في اسماء هذه الكنائس المعطاة وعددها وقد مر بنا آنفاً انها دير مران وباب توما والزاهب ومع ذلك حكى ابن عساكر ان الوليد اعطى النصارى مكان الكنيسة التي في المسجد الكنيسة التي تعرف بجهام القاسم بجذاء دار ام البنين في الفراديس[2] وفي كل هذه الاقوال من الاختلاف والارتباك والتردد ما يوضح لكل ذي بصيرة ان مسئلة الكنائس في صلح دمشق لا تخلو من التخليط والتلفيق حباً بالدفاع عن حرمة الجامع وحلّ بنائه وتبرئته من كل وصمة وعيب .

بقي الكلام على خراب الدير وتعيين موقعه في سفح قاسيون وقد تنابعت علينا عدة اعوام ونحن نرتاد حلّا قاطعاً لهذه المشكلة دون ان نهتدي اليه فلا ندري كيف درج الدير وتهدم بنيانه وتشتت رهبانه ودرست رسومه ومحاسنه وهل كان زواله في بعض الفتن والحروب التي توالت دائماً على دمشق وسلبتها كل محاسنها ومعاهدها ام ذهب فريسة المطامع والاحقاد كغيره من الاديار وآخر ما وقفنا عليه من الاشارات اليه خصوصاً — دون بقعته — قصيدة لعون الدين بن العجمي وصف فيها ثلاثة من اديرة دمشق والغوطة وتقدم لنا الاستشهاد بابياتها للاستدلال على وجود دير للراهبات في جوار دير مران ومعلوم ان عون الدين توفي سنة ١٢٥٨/٦٥٦ فهل كان الدير لا يزال ماثلاً مأهولاً في اوائل القرن السابع للهجرة كما زعم دوسو في قول عزاه غلطاً الى ياقوت[3] وكنا نرجح ذلك الى ان تسنّى لنا مطالعة تاريخ ميافارقين لابن الازرق الفارقي في خزانة بريتيش موزيوم فعثرنا فيه على الشهادة الآتية للمؤلف حكاها بعد المعاينة وأرّخها لحسن الحظ بقلمه وهذا نصها بالحرف:

« سنة ٩٦ في السبت منتصف جمادي الآخرة مات الوليد بن عبد الملك . . . ودفن بدير مران بباب دمشق على النهر الذي يعرف بنهر يزيد تحت الموضع المعروف بكهف جبرائيل

١) مسالك الابصار ١٨٠

٢) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ١ : ١٥٥

٣) Topographie Historique de la Syrie, p. 298.

ولقد كنت بدمشق في سنة خمس وستين وخمس مئة (١١٦٩/٥٦٥ م) واتفق ان رجلا مترهدا مضى الى تحت الكهف ليبني له زاوية ينقطع فيها فحفر في موضع هناك فخرج عليه اثر بناء قديم وعمارة واثر دير وحيطان فيها صور اليونان والنصرانية والصلبان مصورة فخرج خلق كثير ومضوا واصروا الموقع وساعدوا الزاهد ونقضوا منه فقال جماعة من مشايخ دمشق وعلمائها والشيخ العالم الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق وعلمائها ان هذا دير مران الذي كان في ايام بني امية ودفن فيه الوليد بن عبد الملك ثم بنى ذلك الزاهد له هناك موضعاً واقام فيه وهو موضع مليح يطلّ على غوطة دمشق والبساتين تحته وهو يزيد بالقرب منه(١)

ومن الشقاء والخسران ان لا يكون اتصل بنا شاهد آخر يشفي لنا غلة لمعرفة شيء آخر من بناء الزاهد واثاره وتعيين موقعه تقريباً .

وفي هذه الشهادة الراجحة برهان قاطع على ان دير مران كان قد دثر باسره وامحت رسومه قبل ايام عون الدين بن العجمي وقبل عصر ابن عساكر ولولا ذلك لما كان ابن عساكر عرف انقاضه واطلاله المستخرجة ولا شك ان ابن العجمي لم يتغزل بالبيض والسمر من حور دير مران وولدانه الا تفنناً بالشعر واقتداء باسلوب من اساليبه المعروفة في اطراء الحور النصرانية والاطناب في وصف علالي القلالي الرهبانية ومن ثم لا ينتفي ان يكون خراب الدير قد تم قبل القرن الخامس للهجرة ولعلنا نقف يوماً على اشارة اليه في بعض المخطوطات الأنف يمكن ردها الى تاريخ معلوم تقطع بـه جهيزة قول كل خطيب كالتي سبقت من كلام ابن الازرق الفارقي.

ويظهر انه كانت لا تزال منه بقايا في زمان شهاب الدين العمري في القرن الثامن للهجرة فانه لما اشار الى الدير قال : « بدمشق في سفح جبل قاسيون الصالحيّ ... وبجانبها ... كان دير مران المشهور مكانه الآن من المدرسة المعظمية الى عقبة دُمّر ومنه هناك بقايا اثار »(٢) وقال ايضاً في كتاب الديارات من مسالك الامصار : « والناس في اختلاف اين كان دير مران فمن قائل انه كان بشارق السفح نواحي برزة والاكثر على انه كان بغاربه والى مكانه الآن المدرسة المعظمية واما الذي بشارق السفح فهو دير السائمة المسمى دير صليبا»(٣)

١) تاريخ ميا فارقين ، خزانة بريتش موزيوم Or. 5803 f° 76"

٢) مسالك الابصار ٣ : ٢١ خزانة باريس ٣٣٢٥

٣) مسالك الابصار ، طبعة الدار ٣٥٥

وفي هذه المدرسة المعظمية كانت القبة التي دفن فيها الملك المعظم عيسى ابن العادل ابي بكر بن ايوب وامه وابناؤه وغيرهم من البيت الايوبي[1] واشار اليها النويري فقال : هذه التربة هي دير مران المذكور في اشعار المتقدمين[2] وورد مثل ذلك في كتاب البداية والنهاية لابن كثير فقال : كنيسة دير مران بسفح قاسيون وهي بتربة المعظمية (٩ : ١٥١)

وذكر ابن شاكر الكتبي دير مران فقال : هو احد متنزهات دمشق وهو في سفح قاسيون نزله جماعة من الخلفاء ومدحه جماعة من الشعراء وهو على تل عال وتحته رياض زعفران وتُنبت في زمن الربيع من سائر الالوان قيل انه قرية دمر اليوم[3]

والى جانب هذا الدير كانت الدكة المعروفة بالدوّاسة احدى عجائب دمشق فوق يزيد وفيها كان ينزل جعفر بن فلاح احد قواد المصريين واول امير ولي لهم دمشق[4]

٢٤

دير مار موسى الحبشي

بجوار النبك

هو دير قديم مبني بالحجر الصلد فوق قمة جبل عال يقاد له «الجبل المدخن» وتسمى هذه القمة في بعض المخطوطات السريانية «القمة الكبيرة» وهو شرقي النبك يبعد عنها مسافة ساعتين ويشرف منها على سهل افيح يتصل بباحية تدمر وفلسطين وهو اليوم في حوزة السريان الكاثوليك وصفه بطريركهم مار افرام الرحماني في مجلة الآثار الشرقية وقال :

«كان هذا الدير مرحلة للقوافل الغادية والرائحة من بلاد ما بين النهرين وفيه كنيسة جميلة قديمة وعلى جدرانها داخلاً وخارجاً تصاوير وكتابات سطرنجيلية وسريانية سطرها غير

١) الذيل على الروضتين لابي شامة ، باريس ٥٨٥٢ ص ٥٧ — ٥٨ و ٢١٩

٢) نهاية الارب ، خزانة ليون Arab. 19b Goul. ، 112

٣) عيون التواريخ ، باريس ١٥٨٧ ص ٦٣

٤) مختصر مرآة الزمان لابي المظفر الجوزي ، باريس ١٥٨٦٦ ص ٣

واحد من الرهبان والزوار الذين كانوا يحجون الى الاراضي المقدسة فكانوا يمرّون بذلك الدير ذهاباً وايابا »[1]

وورد ذكر الدير في عدة مخطوطات سريانية سبق بعضها تاريخ الهجرة ونقف منها البطريرك المشار اليه على مصحف خُطَّ في الدير سنة ٥٧٥ في عهد ابي كريب الغساني[2] وهو ما يشهد بتوغّل بنائه في القدم وفي خزانة بريتيش موزيوم مخطوط سرياني رقم ٥٨٥ جاء فيه ان في سني ٩٢٠ الى ٩٣٠ حضر الى الدير القس موسى النصيبيني واخذ منه بعض مخطوطات نقلها الى دير والدة الاله في الصعيد بمصر وفي خزانة كمبريدج كتاب رقم Add. ٢٢٨٠ خُطَّ سنة ١٤٩٤ واصله من كتب الدير وفي خزانة باريس كتاب القدّاس رقم ٧٢ كتبه ديسقورس مطران اورشليم ، حين زار الدير سنة ١٤٦٢

واكثر التعليقات التي علّقها النساخ على مصاحف الدير خالية من كل فائدة تاريخية وليس هناك ما يستفاد سوى ان الدير اصبح كرسياً اسقفياً لازدياد رهبانه واقبال الزوار والحجاج عليه وان اللصوص من الاعراب كانوا يتنهبون احياناً امتعته ومخطوطاته .

ومن اسماء الاساقفة الذين اتفق ذكرهم فيها مار جورجي رئيس الدير اسقف مدينة قدس (مخطوط رقم ٥٨٥ بريتيش موزيوم) وديسقورس صروخان اسقف مار موسى (١٧٢٧ — ١٧٦٩)[3] ويوانيس الياس الاصغر الموصلي مطران النبك (١٧٩٧ — ١٨٣٢)[4] وفي الدير سجل محفوظ جاء فيه اسم المطران الياس رئيس الدير سنة ١٨١٠ وعدّدت فيه بالتفصيل اوقاف كثيرة حبسها اصحاب النذور من القرى المجاورة في جبل قلمون والغوطة وبرّ دمشق والزبداني وجبل لبنان وبعض قرى طرابلس وهي شاهدة باشتهار هذا الدير ووفود الزوار اليه من كل حدب وصوب وربّما كانت بعض النذور لقوم من المسلمين كما اعتادوا امثالها في دير السيدة في صيدنايا.

---

١) مجلة الاثار الشرقية ٢ — ١١ — ٣٢٦

٢) مجلة الاثار الشرقية ١ — ٩ — ٣٦٢

٣) نزهة الاذهان في تاريخ دير الزعفران للاب افرام برصوم ص ١٢٢ و١٢٣

ومما هو حريّ بالتنبيه عليه هنا انه لم يبقَ من كل الاديار القديمة التي كانت في دمشق وبرّها فيما عدا دير مار يعقوب المقطّع الذي غلب الخراب عليه في قارة الا ثلاثة اديار عامرة وهي دير السيدة بصيدنايا ومارجرجس في بلودان ومار موسى بالنبك ولعل بعدها عن المدينة وبناءها فوق قنة جبل وصعوبة التوغل اليها وعدم اعتصار الخمور فيها للجانات زهّد المتنزهين وابناء السبيل في طروقها وارتياد الشراب فيها كسائر الاديار المشهورة ولذلك لم ينته الينا اقل شعر في مار موسى او اشارة اليه في الادبيات الاسلامية ولولا معرفة شهاب الدين الدمشقي بحسن موقع دير بلودان وذكره اياه في ابيات اراد ان ينحو فيها منحى الشعراء المتطرحين في الديارات والمعجبين بجمال حورها وولدانها كما يقولون لكان نصيب دير مار جرجس في بلودان لا يختلف عن نصيب دير مار موسى في النبك من الإغفال والاهمال

٢٥

دير ميخائيل او دير البُخت

بظاهر دمشق

اغفله العمري في كتاب الديارات من مسالك الابصار واقتصر ياقوت في معجم البلدان على نقل ما رواه الشابشتي في النسخة اليتيمة المحفوظة من كتاب الديارات في خزانة برلين وهذا نص ما جاء فيه :

« هذا الدير بدمشق على فرسخين منها وهو دير كبير حسن وكان يسمى دير ميخائيل فسمّي : جذا الاسم لبخت كانت لسيد الملك بن مروان مقيمة هناك فعرف جا . وكان لعلي بن عبدالله بن عباس بذلك الموضع جنينة مقدارها اربعة اجربة فكان يخرج اليها ويتنزه فيها ايام مقامه بدمشق » (الورقة)

وقد فات الشابشتي ان يذكر في اى ناحية من دمشق كان هذا الدير وفي جوار اي قرية من قرى الغوطة لنهتدي الى اثر من اثاره ومثل هذا التقصير والغموض في التعريف هو آفة معظم المؤرخين والبلدانيين فلا نكاد ننتفع بكثير من اقوالهم واوصافهم على قلتها وايجازها

ولم نجد اشارة واحدة في الاشعار الخمريات واوصاف الحانات الى هذا الدير فهل كان بعيداً عن دمشق ومنازهها وكان الوصول اليه عسراً طويل الشقة ام كان خالياً من الكروم والاعناب فلم يشتهر بشيء من الخمور التي نوّهت بسائر الديارات وجلبت لها ضروب المخازي والفضائح

ويؤخذ من رواية لابن عساكر انه كان حول دير ميخائيل بقعة مأهولة من منازل بني امية كانت تعرف باسم دير البخت قال في الكلام على داود بن يحيى بن الحكم بن ابي العاص «كان يسكن دير البخت من اعمال دمشق»[1] وذكر ايضاً من ساكنيه قبلاً سليمان بن داود بن مروان بن ابي الحكم[2]

٢٦

دير النساء

بجانب كنيسة مريم بدمشق

انفرد بذكره سعيد بن بطريق وهو اوتيشيوس بطريرك الملكيين في الاسكندرية واغفل اسمه فقال :

« ثار المسلمون في دمشق فهدموا كنيسة مريم الكاثوليكية وكانت عظيمة كبيرة حسنة أُنفق فيها مائتا الف دينار وغير ما كان فيها من آنية وغير ذلك من حلى وستور وخربت ديارات وجامعة دير النساء الذي كان جانب الكنيسة وشتّتوا جكنائس كثيرة وهدموا كنيسة الدسطورية وذلك في نصف رجب سنة اثنتي عشرة وثلثمائة » (١٧ تشرين الاول = اكتوبر ٩٢٤) .

ولا شك انه لما أُعيد بناء الكنيسة بعد سكون الثورة جُدّد ايضاً دير النساء ولم نجد اقل خبر عنه لضياع كل الكتابات النصرانية بدمشق وبرّها بتوالي النكبات والفتن والتهام النيران مصاحف الكنائس وخزائن الاديار ولا سيما مخطوطات دير السيدة في صيدنايا التي اتلفها الروم الارثذكس جهلاً وتعصباً .

---

١) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ٦ : ٢٢

٢) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ٧ : ٢٠٢

٣) نظم الجوهر ، طبعة بيروت ٢ : ٨٣

٢٧
دير هند في الغوطة

وهو دير محمد عند المنيحة

اشتهر ديران في الحيرة باسم هند الصغرى وهند الكبرى ولكن لا نعلم من هي هند التي قام باسمها دير دمشق ولا متى كان بناؤه او في اي وقت أُقطع لبعض رجال بني امية واصبحت بقعته قريبة عدّها ياقوت من قرى الغوطة نقلاً عن ابن عساكر وابن ابي الحجاج وقالوا انها كانت من اقليم بيت الآبار[1] ويغلب على الظن ان هذا الدير هو الذي اشار اليه ابن عساكر في كلامه على محمد بن الوليد بن عبد الملك قال « واليه تنسب المحمديات التي فوق الارزة ودير محمد الذي عند المنيحة من اقليم بيت الآبار »[2] وفي مراصد الاطلاع « عند المسجد من بيت الآبار » (١ : ٤٣٩—٤٤٠) وهو تحريف ظاهر.

٢٨
دير مار يعقوب المقطع

غربي قارة

كانت قارة من أمهات القرى في جبل قلمون واهلها كلهم نصارى كما نبّه على ذلك ياقوت[3] وكانوا ذوي منعة وجرأة وشجاعة ولذلك استعان بهم احياناً بعض النواب والملوك لاغتيال مناوئيهم من رجال الدولة[4] وكانت تطيف بقارة عدة اديار لم يشتهر بينها الا هذا الدير لتقدم بنائه وحسنه واتساعه ووفرة رهبانه واملاكه وإقبال الحجاج والزوار اليه من كل الانحاء المجاورة ولا سيما من حوران وكثرة ما يُحمل اليه من النذور والصدقات ولهذه الاسباب

١) معجم البلدان ٢ : ٧١٠ ، وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٦ : ٤٦ظ . و٤ : ٦٣

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٥ ، وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٦ : ٤٦ ظ.

٣) معجم البلدان ٦ : ١٣

٤) غاية الارب للنويري ، خزانة ليون Arab. 2' Col. °319

كان مطمح ابصار الاصوص وتتابعت عليه غارات التركمان وقطّاع الطريق فظل حيناً يتراوح بين اليسر والعسر الى ان جرد عليه وعلى قارة السلطان بيبرس البندقداري سيف النقمة والبغي سنة ١٢٦٦/٦٦٤ وكان قادماً من دمشق فقيل له ان اهل قارة يتخطّفون احياناً المسلمين ويبيعونهم الافرنج الصليبيين[1] قال النويري : « وكان قد حضر من قارا رهبان بضيافة الى الدهليز (اي الخيمة السلطانية) فامر السلطان بالقبض عليهم وركب بنفسه وقصد الديرة التي خارج قارا فقتل من بها ونهبها ثم عاد وامر العسكر باركوب وقصد التلّ الذي بظاهر قارا من جهة الشمال واستدعى ابا العزّ الرئيس بها وقال له : نحن نقصد الدير فمُرْ اهل قارة بالخروج باجمعهم فخرج منهم جماعة الى ظاهر القلعة فلما بعدوا عنها امر بضرب رقابهم فضربت ولم يسلم منهم الا من هرب واختفى بالمغائر والآبار . . . ثم امر بتوسيط الرهبان الذين حضروا بالضيافة فوسّطوا وتقدم الى العسكر بنهب قارا فنهبوها ثم امر ان تجعل كنيستها جامعاً ونقل اليها الوعية من التركمان وغيرهم حتى شحنها بالناس ورتّب فيها خطيباً وقاضياً وكانت قبل ذلك تسكنها النصارى »[2].

ومنذ ذلك الحين ضعف حال الدير وافتقر بقلة من انضوى اليه من الرهبان وكثرة ما تتابع عليه من تسلط التركمان وفي سنة ١٤٠٣/٨٠٥ « اغار التركمان على قارة وما حولها من القرى ونهبوا ثلث البلد[3] وذهب للدير عدة ذخائر من النذور والاواني البيعية والمصاحف النادرة والمؤن والغلال وتفاقمت الحال عليه في ايام الدولة العثمانية فكان لا يخلو من التعديات والنكبات ومن اشنعها وافظعها ما حلّ به وبرهبانه في اوائل القرن السابع عشر وقد وقفنا على شرح هذه الواقعة في ذيل كتاب الدر المرصوف في تاريخ الشوف لحنانيا المنيّر في نسخة منه مخرومة في خزانة الآباء اليسوعيين في بيروت وهذا نصّها كما وردت بلفظها وعاميّتها وعنوانها وهي حافلة بالفوائد والاخبار :

---

١) نسب ابن خلدون تخطف المسلمين وبيعهم للافرنج لا الى نصارى قارة ولكن الى « عدوان الاحياء الرحالة » (العبر ٥ : ٨٦) .

٢) نهاية الارب ، باريس ١٥٧٨ ص ٧٣ — ٧٤

٣) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٩ ص ٢٠٤

« خبرية دير مار يعقوب المقطع في قارا وكيف قتلوا رهبانه وعن خرابه »

« أن هذا الدير بنيانه قديم وعماره حصين وله تاريخ وضيع ونظروه اناس كثيرين وبعده فقد واما في زماننا حصلنا رهبان قليلين وكانوا ذو عمر طويل لان مناخ هذا الدير جيد جدًا وقريب اليه قرية تدعى قارا فاخبرونا هؤلاء الرهبان انه حين توهبوا في ابتدا عمرهم كان الدير عامرًا قديمًا وكان قبلًا يحوي رهبان كثيرين وهم روم ماسكين قانون باسيليوس الكبير وكان هذا الدير يقصدوا زيارته كثيرين وفيه نبع ماء يدوّر به طاحون وكامل القرايا اللايذين بالدير المذكور يطحنوا حبا وله اراضي متسعة اذا كانت تزرع جميعها فيحصل ارباح وافرة وبالنتيجة ان مداخيل هذا الدير كافية لرهبانه معاش ولو كانوا كثيرين وله سمعة مشهورة وبطعم عجيب للتصدي وللتنادي وعماره في نصف السهل ولكن عالي محصّن جدًا فالتفق من عدرات الرمان من نحو مايتين وخمسون سنة على التقدير باطن سنة الف وستماية وكسور مسيحية جاء للدير بغرق عسكر نحو ثلاثين فرد مقطوع جرايتهم ورموا على الدير وقت العصر وقايدهم منصوب خيطان فتزلوا عن خيلهم وطلبوا ان الريس يقدم لهم اكل وشرب وعليق فقدم لهم حسب العادة ثم بعد برهة وهم خارج الدير طلب قايد العسكر مواجهة الريس وافهمه ان اخص عنيه للدير بقصد زيارة البطل مارى يعقوب ويريد يزور الكنيسة ويقدم النذر الذي معه واراد قطعة ذهب ستة فاطفى لكلامه وفتح له باب الدير ودخل معه اثنين عسكر فزار المقام واعطى النذر وصار يتفرج على الدير ونظر حالة الرهبان وعيشتهم واحوالهم ثم اظهروا وداد ومحبة للريس وبعض الرهبان حتى ان جميعهم اختلطوا منه وقصدوا ان يبات عندهم داخل الدير عدا العسكر واكرموه كثيرًا وثاني يوم وعدهم والرهبان مشغوفة خبه لهم وطلبوا منه يقيم عندهم يومين فاعتذر ان الوزير ارسله في مصلحة ولكن ان شاء الله نعدي بعد قضاها نجتهد ان يرجوعنا نمر عليكم وهكذا ذهب من عندهم فغاب يومين وحضر لعندهم آخر النهار وصحبة نحو خمسين عسكري وبتوف فخرج الريس للاقائه وفتح له باب الدير وادخله الى وسطه مع جملة عسكر وبقي الباب مفتوح ضد العادة وهو سايب والعسكر يدخل ويخرج من غير تكلف والاغا مع الرهبان سلك سلوك عجيب حتى كان يسيهم اخوته.

ثم قدموا العشاء داخل الدير وعليقًا وافرًا لخيلهم حتى كان العسكر داخل الدير والرهبان مطمئنين من نحوهم فنام العسكر نصف الليل تسلحوا وهجموا اولًا على اوضة الريس ذبحوه ثم داروا على الرهبان ذبحوهم جميعًا وكان عددهم انوف من مايتين وعشرين راهبًا ونهبوا الدير والكنيسة تمامًا وذهبوا حالًا واغلقوا الباب خلفهم . ففي الصباح لحظوا اهل قارة بما صار فاعرضوا للشام وخرج عسكر وافر يطلب هولاء الاشرار الاردية فما وجدوا لهم اثر ومن وقته زال رونق الدير من الدثار والخراب.

ثم حضر بعض رهبان الذين كانوا دايرين بالقرايا والشام لمصالح تخص الدير ايضًا حضر رهبان القاطنين بدير سيدة رأس بعلبك الذي تابعا لدير مار يعقوب وهذا الدير في يومنا يد رهبنة الشويريين بدير مار يوحنا وقبلًا ما كان رهبنة في الشرق غير مار يعقوب كان كرسي وتبعه دير السيدة المذكور فلما نظروا الرهبان ما حدث بديرهم من النهب والقتل

فانقصوا جداً ما يدهم حيلة غير الصعر غير انه حصل جفل للناس الذين يرغبون دخولهم بالرهبنة لان الدير افتقر نوعياً وصار تعيون ما بقي امان واذا كان احد يترهب فهو نادراً جداً وخفّت الرهبان لان الذي يموت ليس له عوض ثم بعد مدة من السنين وهي سنة الف وسبعماية وتسعة وخمسون حصل زلزلة هائلة في بلاد الشرق اغرق الذي بالدير وغار النهر بالارض كلياً وطلت الطاحون وهكذا وهذا مما حسّم خراب الدير والرهبان حين غار الماء فصاروا قليلين وقضوا معيشتهم بالفقر والنهر .

واخيراً حدود سنة الف وسبعماية فجاؤا لدير مار يوحنا واتتركوا منهم وتركوا ديرهم سايب ما به احد وهؤلاء الرهبان شاهدناهم بالجبل اسمائهم متى وسمعان وارسانيوس وجميعهم من عمر تسعين سنة وطالع واهل قارا نلاحظ الدير من الخراب وهم روم كاثوليك وبعد كم سنة حضر راهب شويري وهو مقربي ذي الرهبان واشتاع انه كاهن وسارق كتب طقسية وكان يخدم بالمذبح وهو لص سارق وحين لحظ فحص اهل قارة عنه فهرب من الدير وسكنوه بالجبل وقلت عنهم ولا نعلم كيف جرى امره وهكذا بقي سايب دير مار يعقوب زماناً طويلاً . اخيراً من ايام قريبة توجه اليه راهبين من دير مار يوحنا الشوير كاهن وراهب تقشّدوه واتفقوا لعمار ورقه وقيل انه ظهرت عين ماء زعيدة مكان العين التي عارت بالزلزلة قديماً وثبتوا فيه الرهبان الى يومنا هذا .

وبقي الدير في حوزة الرهبان الشويريين الى زمان البطريرك مكسيس مظلوم وفي خزانتنا منشور له بتاريخ ٣ آب سنة ١٨٣٦ هذا نصه :

« انا قد اتفقنا يوم تاريخه ادناه مع حضرة ولدنا العزيز المتوري فلابانوس رئيس عام الرهبنة الحنانية البلدية الجزيل الاكرام على ما يأتي ذكره بخصوص دير القديس يعقوب الذي في قارة اذ ان هذا الدير هو مختص بكرسي قارة وبالابرشية وهو الاساس لاسقف معاش اسقف الكرسي من المداخيل التي تفيض من ارزاقه عن مصاريفه ومن ثم عدلاً وذمة يلزم ان يستمر كما كان وكما هو الآن تحت ولاية اسقف الابرشية من دون توسط ولا يباح اصلاً تخصيصه برهبنة من الرهبنات وذلك للسبب المذكور اي لان اساس معاش اسقف الابرشية هو من مدخوله فالرئيس العام المذكور قد ارتضى لمجد الله وخير الابرشية المذكورة وتتميماً لرغبتنا ان يرسل من قبله احد كهنة رهبنته الذي هو ولدنا القس بناديكتوس فتوح الاكرم مع ولدنا راهبه اثيموس المكرم الى الدير المرقوم ليقيما فيه ويتسلما ارزاقه مع كل ما يخصه ويتوليا مداخيله من اليوم الحاضر فصاعداً الى مدة ثلث سنوات . . . (التي غايتها تكون في اول تشرين الاول سنة ١٨٣٩) . . .

ثم ان الوكيل المذكور يلزمه ان يحفظ عنده اولا قائمة الموجودات المختصة بالدير التي يتسلمها من يد ولدنا العزيز الشيخ ابرهيم مسرور وتبقى صورتها مختومة منه بيد ابرهيم المذكور . ثانياً ان يرتب له دفتراً خصوصياً ليدوّن فيه جميع المداخيل والمصاريف . . . من حيث انها عادة قديمة هي ان تجمع له خصوصية باسم هذا الدير تكريماً لصاحبه القديس يعقوب من ابرشية حوران ومن المحلات الاخر المجاورة من نذورات وحسنات . .

ومن اخباره التي تلقطناها انه في سنة ١٧٩٠ اغار الامير جهجاه الحرفوش على الدير ونهب ما اجتمع فيه لاهل الرأس والفيكة من الودائع والحرير والدواب[1] وفي سنة ١٨٥١ نقب اللصوص احد جدرانه وسلبوا الراهب المقيم فيه امتعته ونقوده واتّهم اثنان من الروم الارثذكس فأُخذا واقرّا بالسرقة[2].

وفي ايام البطريرك مكسيموس مظلوم رُمّ الدير وجُدّد ما غلب عليه الخراب ولما زرناه سنة ١٩١٣ وجدنا في ارض الكنيسة وكانت مهدلة مهجورة حجرًا مطروحاً قرأنا فيه الكتابة التالية في اربعة اسطر :

قد تجدّد هذا الدير مزهرًا بهاء بعناية قدس السيد السامي فضله مكسيموس مظلوم البطريرك الانطاكي ادام الله طهره وبرّه وعلاه.

وقبلًا تولى اسقفية حمص وملحقاتها السيد يوسف سفر وكانت قارة والدير في حكمه فاقام على الدير الخوري بطرس مسلم ولكنه لم يلبث فيه الا قليلًا وخرج منه لخلاف حدث بينه وبين حاكم الناحية ثم تقلد الاسقفية غريغوريوس عطا فاسند رئاسة الدير الى الراهب اناطوليوس شاهيات وخلفه القس بناديكتس فرح كما ذكرنا آنفاً وُصرف بالقس فلاسيوس بسيريني وبقي الدير مطّرحاً متبدماً الى ان دخله في ١٥ ايلول سنة ١٩٠٨ الخوري غريغوريوس بندق فوجد الدير خراباً وارض الكنيسة ملأى بالبعر والاقذار لأنها جعلت حظيرة وزريبة تأوي اليها اسراب الجداء والماعز والغنم فاشتغل بتنظيفها مدة ثمانية ايام ولم يبلغ الغاية وكان بالدير قديماً مطحنة وفرن ومعصرة دبس وحمّام وصهريج ما. وبرج حمام لم يبقَ من الاوكار فيه الا نحو الثلث وفي الدير ايضاً عين ما. زلال وبستان وامامه جفان وكروم وله اراضٍ بعل نحو من مائتي فدان يتصرف اهل قارة بها من نصارى ومسلمين ويستأثرون بغلالها ولو رُزق من يحسن سياسته والقيام عليه لكان في مقدمة اديار الروم الملكيين طيب بقعة وصفاء هوا. وعذوبة ما. واصبح معهدًا من معاهد التثقيف والتعليم وملجأً للعجزة وشيوخ الرهبان.

---

١) تاريخ الخوري روفائيل كرامة ص ١١٧

٢) حوض الجداول المخطوط للمطران عطا ص ٢١٥

ولا شك انه كان في الكنيسة قديماً عدة صور ومصاحف ثمينة انتُهبت واغتالتها ايدي الحوادث والكوارث والتهمتها افواه النيران ولم نجد فيها الا صورة واحدة من القرن الثامن عشر كُتب عليها :

« اوقف هذه الايقونة المباركة العبد الفقير المقري عبدالله بن يوسف صرة الدمشقي اصلاً على دير مار يعقوب المقطع من قرية قارة بيد جرجس بن حنانيا المصور سنة ١٧٥٣ ».

ومن كتب الدير المحفوظة في الخزانة « كتاب السواعي رقم ٨٦ وقف برماريني على خزانة الفاتيكان » سطّره . . . الحقير في الرهبان ديونيسي ابن رزق بن داود من قرية اراس عمرها الله تعالى وهو قاطن يوم بذا في الدير المبارك دير مار يعقوب المقطع غربي قارا . . . » وتاريخ كتابته نهار الجمعة عاشر شهر ايار سنة ٧٠٦٨ للعالم (= ١٥٦٠ للميلاد)

وفي خزانة برلين :

١ كتاب تريودي سرياني ملكي خُطّ سنة ١٩٩٩ لآدم = ١٤٩١ للميلاد بيد « حبيب بالاسم قيس ابن الاب السيد الاسقف مقاريوس بن حبيب بن داود » رقم ٣١٠ كان قبلاً موقوفاً على كنيسة دير عطية ثم « أُوقف وحُبس عن روح القس يونان بن القس يعقوب لدير القديس المجيد مر يعقوب بقارا ».

٢ كتاب ميناون سرياني ملكي رقم ٣٢١ كُتب في الورقة ٣٢١ منه « هذا الكتاب لدير مار يعقوب » ويظهر ان تاريخه لا يتجاوز القرن الرابع عشر وفي مكتبة دير السيدة بصيدنايا « كتاب قرآءات الانجيل » رقم ٤ وبآخره هذا التعليق :

« كان الفراغ من هذا الكتاب المبارك في خمسة ايام مضت من شهر حزيران المبارك سنة ستة آلاف وتسعمية وخمسة وثمانين لابينا آدم . . . (١٤٧٧ م) وذلك بيد عبد المسيح الحقير في الكهنة يواكيم باسم قيس ولابس توب التوبة ابن ابرهيم من قرية حنانك وهو يومئذ ساكن في دير مار يعقوب المقطع غربي قارا . . . »

٢٩
دير يُوَنّى (يوحنا)
بظاهر دمشق

وَهِمَ في ضبطه كل من ابن شداد في الاعلاق الخطيرة وياقوت في معجم البلدان وشهاب الدين العمري في مسالك الابصار وروده في حرف الباء الموحدة بدلًا من الياء المثناة المضمومة واورده ياقوت بعد دير بولس وقبل دير التجلي واهله جاء بالموحدة ايضاً في نسخ كتب الديارات الاصبهاني والخالدي وقد سقط من نسخة الشابشتي في برلين فلا يدرى كيف كان مثبتاً فيها واغفل ذكره البكري في معجم ما استعجم في جملة الديارات الكثيرة التي ضرب عنها صفحاً واللفظة رومية كما هو معلوم والدير من اديار الروم الملكيين ولا شك انه كان مبنياً على اسم يوحنا المعمدان لقول ياقوت والعمري ان الدير كان من اقدم ابنية النصارى « بني بعد المسيح عليه السلام بقليل » فلا تمكن نسبته الى يوحنا ذهب او يوحنا الدمشقي.

وفي ياقوت والعمري ان الدير كان بجانب غوطة دمشق في انزه مكان بين رياض مشرقة وانهار متدفقة ولا يخفى ما في هذا التحديد من الغموض والابهام وهو قد يصدق على غير موضع واحد في ظاهر دمشق ولعل الاغلب انه كان في ناحية باب الفرادیس حيث تعددت الديارات والبيع وقد شهد احد شيوخ بني حمدون حين صحب المتوكل وقدموا دمشق سنة ٢٤٣/٨٥٧ انهم طافوا الموضع المعروف بالفراديس (ظاهر باب الجابية اليوم) ونزلوا منزلًا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة[1] فلا يبعد ان دير يوَنّى كان في جملتها وكان موضعه في زمان العمري قد تنوسي واضمحلّت معالمه ولذلك قال فيه : « هذا الدير اليوم لا وجود له وقد اقفرت الارض منه من رسم وطلل ومضى وحادث كل دير بعده جلل »[2] وكان خرابه دون ريب بعد القرن السابع للهجرة او في اواخره . لان

١) الدرج الملتقط من كل بحر وسقط خزانة برتيش موزيوم Add. 19408 f° 126b

٢) مسالك الابصار ٣٥١

معجم البلدان شهد انه كان صغيرًا ورهبانه قليلين وحكى ان الوليد بن يزيد الخليفة الاموي اجتاز به فرأى حسنه فاقام به يوماً في لهو ومجون وشرب وقال فيه الابيات الآتية اذا صحت نسبتها اليه ولا يخفى على احد ما فيها من الغلوّ الشعري وحب الاغراب والتطرف :

حبذا لباني بدير بونّى حيث نُسقى شرابنا ونُغنّى
كيف ما دارت الزجاجة درنا بحسب الخاطون انا جننّا
ومررنا بنسوة عطرات وغناء وقهوة فنزلنا
وحملنا خليفة الله قطرو سّ حبونا والمستشار يُحنّا
فاخذنا قرباضم ثم كمّر نا لصلبان ديرهم فكفرنا
واستهمّا بالناس فيها يقو لون اذا خُبّروا بما قد فعلنا (١)

ومن البيت الرابع يستدلّ على ان رأس الدير في عهد الوليد بن يزيد كان سمه بطرس ولعل اسم المستشار يحنّا لم يرد معه الا لاقامة القافية او انه اشارة الى سمي الدير ويتحصّل من ذكر « النسوة العطرات والغناء والقهوة » في البيت الثالث انه كان الى جانب الدير حانة يباع فيها الشراب كما يشهد بذلك ايضاً حديث ابن ابي اللقاء الشاعر عن عبد الملك الدمشقي الشاعر الذي رواه السيوطي في كتاب الديرة قال:

« خرجت في عصبة من اصدقائي الى دير مار يونّا فاخرج الينا قس كان فيه شراباً عتيقاً وكان معنا غلام حسن الوجه يضرب بالعود ويغني احسن غناء فجلسنا في روضة اريضة تطل على الغوطة واقمنا ثلاثة ايام وانشد فيه عبد الملك :

قليت طيب العيش في دير باونّا بندمان صدق اكملوا الظرف والحسنا
خطبت الى قس به بنت كرمة معتقة قد صيروا خدرها دنّا
فتاهً بها عجبًا وقال جذه ائتيه على الآفاق عجبًا بما منا
دفعنا اليه مهرها حين زفّها عروساً تهادى في قراطقها زفنا
وقمنا الى روض اريض وشادن غضيض تمار الحور في شكله حسنا
له جيد جيداء وعين غزالة يريك اذا عاينته البدر والغصنا
يغنّي فيُفتينا بحسن غنائه عن الغانيات المحسنات اذا غنّى
وتنثني لنا الاطراب رنّات عوده اذا عوده في حجره مرّحاً رنّا

(١) من الغريب ان ياقوت الرومي روى هذه الابيات في دير بونى (٢ : ٦٤٩) ونسبها للوليد بن يزيد ناسياً انه سبق ونقلها في تعريف « تل بَوّنا » من قرى الكوفة حيث عزاها لمالك بن اسماء الفزاري (٤ : ٨٦٥) وهو سهو منه ظاهر .

ويثني الى غي النصابي قلوبنا | اذا استطق الاوتار او حرك المثنى
ويبدي لنا اللحن المليح اذا شدا | وقد آن الاصاخ ان تسمع اللحنا .
خلعنا عذار اللهو عنا ولم نزل | اذا اسرف العذال في الغي اسرفنا
وهان علينا القرن في طاعة الهوى | فان اكثر اللوّام في اللوم هوّنا
وحقّ لذاك العيش لو كان عائدًا | علينا وكنّا فيه مثل الذي كنّا
ساشكر ما قد قلته ووصفته | من القصف والاطراب في دير باونا [1]

وقد رويت هذه الابيات في كتاب برق الشام (كذا) وهو بعض كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد في خزانة جامعة ليدن arabs. 1466 f° 62 ومن تابع ياقوت وسائر النقلة في غلط رواية اسمه وضبطه بالباء الموحدة العالم الاثري دوسو في كتابه Topographie de la Syrie p. 297

٣٠

دير مار يونان

بدمشق

كان هذا الدير لليعاقبة بدمشق ولا يعلم موضعه وغاية ما روي من اخباره ان يعقوب احد اساقفة طيرية في القرن العاشر للميلاد كان قبلًا راهباً من دير مار يونان[1] وان سلمون مطران دمشق في منتصف القرن التاسع[2] وتاوفيل مطرانها في اواخر القرن العاشر[3] كانا كلاهما من رهبان هذا الدير ونظيرهما خريستودولو اسقف بعلبك اقامه البطريرك اتناسيوس بعد شهر تشرين الاول سنة ٩٨٦[4].

---

١) تاريخ ابن عساكر المخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق المجلد العاشر رقم ٩ (تاريخ) الورقة ٢٦٩ ظ .

١ و ٢ و ٣ و ٤) J. Chabot : *Les Evêques Jacobites au VIII Siècle* p. p. 20, 13, 24. 25

الاديار التي ضاعت اسماؤها ونسبت الى ما جاورها من البقاع او الى مُقطعيها من الامراء الامويين

لمع من اخبارها بعد الفتح

٣١
دير أبان

دير ابان من قرى الغوطة قال ابن عساكر في تاريخه : عثمان بن أبان بن عثمان بن حرب بن عبد الرحمن بن الحكم بن ابي العاصي بن امية كان يسكن دير أبان عند قَرْحتا وهو منسوب الى ابيه ابان ذكره ابن ابي العجائز[1].

وتعد قرحتا اليوم من قرى المرج وهي في شرق « خيارة نوفل » وتبعد عن قرية جسرين نحو ساعتين وممن سكنها من الامويين يحيى بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية[2].

٣٢
دير البالسي

ورد ذكر هذا الدير في قصيدة لمحاسن الشوّا الحلبي عدّد فيها منتزهات دمشق في ايامه وقال فيها :

بحيرا وللنيرانا ودير البا لسيّ اضحكت في اللهو سرّا[3]

ومن اخبار هذا الدير ان في سنة ١٢٦١/٦٩٥ وصل الخطيب ناصر الدين بن عبد السلام من الديار المصرية الى دمشق ... لاجل مشترى دير البالسي ظاهر دمشق للملك العادل[4].

---

١) معجم البلدان ٢ : ٦٢٩

٢) تاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٨ : ٧٤ ظ .

٣) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ باريس

٤) تاريخ الجزري « حوادث الدهر وانبائه ٦٧٣٩ باريس ١٧٢

٣٣ دير بجدل

كان هذا الدير من اقليم بيت الآبار في موضع منه اغفل ابن عساكر ذكره. وابن بجدل هذا هو سعيد بن مالك بن بجدل اقطعه يزيد بن معاوية هذا الدير فنُسب اليه[1] وهذا كل ما يعرف من اوصافه.

٣٤ دير سابر

قالوا: من نواحي دمشق من اقليم حرلان سكنه عمر بن محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وذكره ابن ابي العجائز في تسمية من كان بدمشق وغوطتها من بني امية[2] ولم يقل احد من هو سابر ولا في اي قرية من قرى دمشق كان هذا الدير.

٣٥ دير العصافير

هو اليوم اسم قرية عامرة في قضاء دومة في الجنوب الشرقي من زبدين وكان يعدّ قبلاً من منازه دمشق اشار اليه ايضاً محاسن الشوا الحلبي في قصيدته التي تغنى فيها بتواطن الانس واللهو في ضواحي دمشق وقال:

واذكرا عنربا ودير العصا فيه لسعي ان شئتما ان تمرّا[3]

ولم نعثر على ذكر له في تاريخ ابن عساكر ولا نعلم لِمَ أُطلق عليه هذا الاسم.

٣٦ دير قيس

هو ايضاً فيما ذكروا من اقليم حرلان ولكنهم اهملوا تعريف موضعه كعادتهم غالباً في التعمية والالغاز ويظهر انه كان حسن الموقع جليل العمارة واسع البقعة لان معاوية الخليفة الاموي اختصه لنفسه واعتقده في جملة ضياعه في الغوطة وممن سكنه من ذريته سعيد بن محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وابنه خالد بن سعيد[4] ولا ندري من هو قيس الذي عُرف به الدير.

---

(١)

(٢) معجم البلدان ٣ : ٦٦٦ – ٦٦٧

(٣) عيون التواريخ لابن شاكر ١٥٨٧ باريس

(٤) معجم البلدان ٣ : ٦٦٦ وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ٥ : ١٦٤ ظ . و ٧ : ١٧٣ ظ .